العايش زهواني

ضجيج داخلي

مقالات العياشي

مقالات

ضجيج داخلي

مقالات العياشي

تأليف :

الأستاذ العايش زهواني

العفاطية
للنشر والتوزيع

اسم المؤلف: الأستاذ العايش زهواني

عنوان المؤلف: ضجيج داخلي –مقالات العياشي-

النوع: مقالات

تنسيق داخلي واخراج فني: نبيل حميدة

تصميم الغلاف: حنان ميزو

الطبعة الأولى: 2025

الردمك: 978-9969-515-34-3

دارالعكاظية للنشر والتوزيع

الهاتف: 0658908590

الايميل: marwa.25cben@gmail.com

لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدارأي جزء من هدا الكتاب

سواء ورقيا أو الكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إدن خطي من الناشر.

الآراء الواردة في هدا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

توطئة

المقالات عبارة عن خيال وتأملات وهواجس نفسية للكاتب، ممزوجة ببعض الحكم والامثال الشعبية المعروفة، ومدعمة ببعض الآيات الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة في البعض منها، وتحوي بعض الاقتباسات ايضا وفيها نوع من الإسقاط على الواقع المعاش، أو كما يقال حقيقة بتصرف، وقد تتشابه بعض التصورات والأفكار فيها مع أخرى في الواقع او لكتاب اخرين ، وهي لا تمت لها بأي صلة لا من بعيد ولا من قريب.

الإهـــــداء

إلى روح والدي الكريم

إلى والدتي

إلى زوجتي سندي في الحياة

إلى ابنتي لجين واسيل

إلى روح ابنتي تسنيم

إلى أصدقائي النادرين الذين دعموني بكل قوة.

المحور الأول:

التأملات الفلسفية

والإنسانية.

تأملات في الوردة والإنسان

في صباح شتوي بارد، بينما كنت أمرّ إلى مكتبي لأبدأ يوم عملي، لفتت انتباهي وردة جميلة تتفتح بكل أناقة وسط البرد القارس، في منتصف الشتاء، حيث يفترض أن تكون الطبيعة في سبات عميق، بدت هذه الوردة وكأنها تتحدى الزمن والظروف، هذا المشهد البسيط أثار في ذهني تأملات عميقة عن الإنسان وعلاقته بالبيئة التي يعيش فيها، وعن قدرته على النمو والإزهار في أوقات قد لا تبدو مثالية.

الإنسان، في جوهره، يشبه الكثير من الكائنات التي خلقها الله وسخرها له، فكما تحتاج الوردة إلى تربة مناسبة وموسم ملائم لتزهر وتثمر، كذلك يحتاج الإنسان إلى بيئة تدعم نموه وتفتح أمامه آفاق الإبداع والإنتاج، تخيل وردة تنبت في أرض قاحلة أو تتفتح في عز الشتاء؛ قد تبدو جميلة للحظة، لكنها لن تستمر طويلاً ولن تؤتي ثمارها، هكذا الإنسان أيضًا، إذا وُضع في بيئة لا تتناسب مع طباعه

أو قدراتــه، أو أُجبــر علــى العــيش فــي ظــروف لا تســمح لــه بالنمو، فقد يفقد القدرة على تحقيق ذاته.

إن مواهــب الإنســان العلميــة والعمليــة، وكــذلك إبداعاتــه الأدبيــة والفنيــة، هي بمثابــة بــذور تحتــاج إلى الرعايــة والوقــت المناســب لتنمــو، عنــدما يُنتــزع الإنســان مــن بيئتــه الطبيعيــة، أو يُجبر على العمـل في مجـال لا يناسـبه، أو يُحـرم مـن فرصـة التعلـيم والتطـور، فإنـه يشـبه تلـك الـوردة التي أُجبـرت علـى التفتح في البرد، قـد يبـدو ظاهريًـا أنـه يواصـل الحيـاة، لكنـه في الــداخل يــذبل تــدريجيًا، وتضــيع كفاءاتــه، وتُــدفن مواهبــه حية.

إن هـذا التأمـل يـدعونا للتفكيـر في أهميـة اختيـار البيئـة المناســبة لكــل فــرد، ســواء كانــت بيئــة اجتماعيــة، عمليــة، أو حتـى نفســية، فكمــا تحتــاج الــوردة إلــى الــدفء والضــوء، يحتــاج الإنســان إلى الــدعم والفــرص ليثمــر ويزهــر في وقتــه المناسب.

بين معدن الذهب وصدأ الحديد

في الحياة، بين هذا وذاك، نلتقي بأشخاص يتركون فينا أثرًا عميقًا، سواء بصدقهم أو ببرودهم، هناك صديق لم تره منذ سنوات طويلة، ربما عقد أو عقدان، يعبر الزمن والمسافات ليعانقك بعينيه قبل يديه، يتعرف عليك من الوهلة الأولى، يهرع إليك بابتسامة مشتاقة، يسأل عن أحوالك وأحوال أهلك بلهفة صادقة، يطلب رقم هاتفك بنية التواصل، ويدعوك لزيارته إذا مررت بمدينتكما القديمة أو المدينة التي استقر فيها، يتحدث بحماس، يستعيد ذكريات أيامكما الجميلة، تلك الحوادث العفوية التي عشتما معًا، وكأن لسان حاله يقول: "صداقتنا كانت طيبة، نقية، لم تشبها شائبة، ولم تُمحَ بسنوات الفراق أو يُطفئها البعد، معدنها من ذهب لا يصدأ، وجواهر تتألق داخل القلب بنور لا يخبو"، هذا الصديق يذكرك بأن العلاقات الحقيقية لا تموت، بل تبقى محفورة في الروح، متأصلة كالمعادن النفيسة التي تزداد قيمة مع الزمن.

ثم هناك صديق آخر، كنت تعده من المقربين ذات يوم، يلتقيك بعد سنين من الانقطاع، يمر أمامك، ينظر إليك، يتفحصك بعينيه جيدًا، لكنه يصمت، ينتظر منك أن تبادر بالسلام، بدافع النقاء الذي بداخلك، تسلم عليه، وتقول في نفسك: "ربما لم يتعرف عليّ، ربما تغيرت ملامحي، أصبح أنفي كبيرًا، عيناي جاحظتين، رأسي مسطحًا"، لكنه يرد ببرود، كأن السنين أطفأت فيه أي شعور بالدفء، تحاول أن تحفظ الود، تسأله عن أحواله وأحوال أهله، لكن الحوار يأخذ منحى آخر، يسألك: "ماذا تفعل هنا؟" تجيب: "أعمل"، يستفسر: "في أي مصلحة؟" تخبره، لكن سرعان ما تدرك أن الحوار ليس للاطمئنان، بل لاستكشاف ما يمكن أن ينتزعه منك عند الحاجة، وكأن لسان حاله يقول: "معدني من حديد بارد، لا يحس ولا ينكسر، قد يلمع من بعيد، لكنه مليء بالصدأ وبرادة الحديد، لا أكون إلا حيث مصلحتي."

هذان النموذجان يعكسان تناقضات الإنسان والعلاقات، الأول يمثل الصداقة الحقة، تلك التي تبقى كالذهب الخالص، لا تتأثر بتقلبات الزمن أو المسافات، إنها علاقة تقوم على الصدق والوفاء، تتجاوز الحوادث

العرضية، وتحتفظ بجمالها مهما طال الفراق، أما الثاني فيجسد الصداقة الزائفة، التي تبدو لامعة من الخارج، لكنها جوفاء من الداخل، تحركها المصالح وتذبل عندما تنتهي الحاجة، إنه كالحديد الذي قد يبدو قويًا، لكنه يصدأ ويتآكل مع الوقت.

هذا الضجيج الداخلي الذي يولده التناقض بين الاثنين يدفعنا للتأمل في قيمة العلاقات في حياتنا، كيف يمكن لشخص أن يحملك في قلبه بعد عقود، بينما آخر ينساك بعد سنوات قليلة؟ الإجابة تكمن في المعدن الذي صيغت منه كل علاقة، الذهب يبقى لامعًا، يضيء الداخل بنوره، بينما الحديد يتحول إلى صدأ يأكل نفسه، في النهاية، ندرك أن الصداقة الحقيقية ليست بعدد السنين أو كثرة اللقاءات، بل بنقاء النوايا وصفاء القلوب، فالحمد لله على أصدقاء الذهب الذين يضيئون حياتنا، وعلى تجارب الحديد التي تعلمنا كيف نميز بين الأصلي والزائف.

الإنسان متعدد الأرواح في عزلة البشر

عندما يدرك المرء أن مخالطة البشر قد تفقد جدواها، وأن التعمق في العلاقات معهم لا يحمل مغزى يُذكر، يبدأ تحول عميق في داخله، هذا الإدراك، الذي قد يأتي بعد تجارب طويلة أو خيبات متكررة، يزرع في النفس بذور إنسان جديد، متعدد الأرواح والأنفس، يتشكل داخلك كيان غريب، يجمع بين تناقضات تبدو مستحيلة التوافق، تجد نفسك تحمل الشرير الأناني الذي يفكر في ذاته أولًا، والطيب المتخلق صاحب الضمير الحي الذي يسعى للخير، يظهر فيك المسالم اللطيف الودود الذي يبتسم للجميع، بجانب المتحجر عديم الأحاسيس الذي لا يبالي بشيء، يتجلى الفنان المبدع المرهف الحس الذي يرى الجمال في التفاصيل، جنبًا إلى جنب مع الأحمق الغبي الذي يتعثر في أبسط الأمور، والمتعلم المثقف الذي يبحث عن المعرفة بلا كلل، كل هذه الزوايا تتصارع وتختلط داخلك، كأنك أصبحت مرآة تعكس كل خلائق البشر التي خالطتها.

يقولون إن "خلائق السفهاء تُعدي"، وإن الأنفس تتأثر بمخالطة بعضها لبعض، عندما تبتعد عن البشر، لا تفرغ نفسك منهم تمامًا، بل تحمل معك بصماتهم، فتتشكل فيك هذه التناقضات كنتيجة طبيعية لما رأيت وسمعت وعشت، لكن من وسط هذا الصراع الداخلي، يولد شيء فريد: الإنسان الفيلسوف، هذا الفيلسوف ليس مجرد حالم أو متأمل، بل صاحب بصيرة وحكمة، يرى ما وراء السطح، ويدرك خبايا الأمور بنظرة ثاقبة، هو نتاج كل تلك الأرواح المتضاربة التي تصالحت في داخله، أو ربما استسلمت لتعايش قسري، فأنتجت شخصًا يفهم الحياة بعمق لم يكن ليصل إليه لولا هذا الضجيج الداخلي.

لكن هذا التحول لا يأتي بلا ثمن، ففي سبيل الوصول إلى هذه الحكمة، تستهلك جل طاقاتك الجسدية والنفسية، تجاربك مع البشر، محاولاتك لاكتشاف أغوارهم، مواجهاتك لخيباتهم وتناقضاتهم، كلها تستنزف منك وقتًا ثمينًا، هذا الوقت الذي يذهب سدى قد يكون الكنز الحقيقي الذي أضعته، لو أنك وجهت تلك الطاقة نحو صنع ذاتك، رسم معالم حياتك، وتحديد مسارك بعيدًا عن ضجيج الآخرين، لربما كنت اليوم في مكان مختلف، شخصًا

أكثر استقرارًا، أقل تناقضًا، وأغنى تجربة ذاتية، بدلًا من ذلك، أصبحت حقلًا لصراع الأرواح، تحمل كل ما خالطته من البشر، وتحاول أن تجد معنى وسط الفوضى.

هذا الضجيج الداخلي يعكس مفارقة الإنسان: كلما ابتعد عن البشر ظنًا أنه يحمي نفسه، كلما حمل المزيد منهم داخله، الابتعاد لا يعني النقاء دائمًا، بل قد يعني امتصاص كل ما مررت به، حتى تصير خليطًا من كل شيء ولا شيء في آن واحد، والفيلسوف الذي يولد من هذا الصراع، رغم حكمته، يظل أسيرًا لأسفٍ خفي: أسف على الوقت الضائع، وعلى الطاقة التي أُنفقت في معارك لم تكن ضرورية، فالحياة، في النهاية، ليست مجرد رحلة لاكتشاف الآخرين، بل فرصة لنكتشف أنفسنا ونبنيها، وإذا كان الابتعاد عن البشر يجعلنا فلاسفة، فقد يكون الاقتراب من ذواتنا هو ما يجعلنا أكثر إنسانية وحياة.

من التجارب الحياتية إلى حكمة العزلة

يقال إن أغلب الكتاب والمؤلفين في مختلف المجالات أبدعوا أروع أعمالهم وهم في حالة عزلة، لا شك أن الهدوء والتأمل والابتعاد عن صخب العالم يشكلون بيئة مثالية للإلهام، حيث يتمكن العقل من استحضار أجمل ما في النفس البشرية وصياغته في كلمات أو أفكار خالدة، لكن السؤال الذي قد نغفل عنه هو: كيف وصل هؤلاء المبدعون إلى هذه المرحلة من الوعي والحكمة التي مكنتهم من إنتاج أعمال رفيعة المستوى؟ الإجابة تكمن في أن العزلة لم تكن بداية الرحلة، بل كانت نتيجة مسيرة طويلة من التجارب والاختلاط بالحياة بكل تناقضاتها.

هؤلاء العظماء لم يولدوا حكماء أو مبدعين، بل سلكوا طريقًا شاقًا تعرفوا فيه على البشر بكل أطيافهم وألوانهم. عاشوا بين الفقراء ليدركوا مرارة الحاجة، واختلطوا بالأغنياء ليروا تبعات الرفاهية والكبرياء، قابلوا الطماعين واللصوص، والمقامرين الذين يراهنون بكل شيء، والشرفاء الذين يتمسكون بمبادئهم، والمخادعين الذين ينسجون الأكاذيب ببراعة، رأوا الصادقين يناضلون في عالم مليء

بالغش، والمرضى يصارعون اليأس، والأصحاء يتجاهلون النعمة، تعاملوا مع التجار الأثرياء والمتواضعين الذين يخفون قوتهم، والمتكبرين الذين يتباهون بما لديهم، والسفهاء الذين يفتقرون إلى البصيرة، والحكماء الذين ينيرون الدروب بصمت.

من خلال هذا الاحتكاك المكثف بالحياة، تشبع هؤلاء المبدعون بتجارب متنوعة شكلت رؤيتهم وصقلت أفكارهم، عاشوا لحظات الفرح والألم، النجاح والفشل، الحب والخيانة، مما منحهم فهمًا عميقًا للطباع البشرية والدوافع الكامنة وراء الأفعال، هذه التجارب لم تكن مجرد أحداث عابرة، بل كانت دروسًا عملية مكنتهم من استنباط الحقائق وتوقع النتائج بناءً على ما شاهدوه وعايشوه، بفضل هذا الإدراك، أصبحوا قادرين على الحكم بدقة، ليس فقط على الأفراد، بل على الأحداث والظروف التي تحيط بهم.

بعد هذه الرحلة الطويلة من التعلم والاكتشاف، لجأ هؤلاء إلى العزلة ليستخلصوا خلاصة تجاربهم، في الهدوء، تمكنوا من ترجمة ما اختزنوه في أعماقهم إلى كتابات ومؤلفات علمية وأدبية تحمل بصمة الحكمة والوعي الصادق، هذه الأعمال لم تكن مجرد تعبير عن أنفسهم، بل

أصبحت منارات تنير طريق الآخرين، تساعدهم على فهم الحياة ومواجهة تعقيداتها، فالعزلة، في هذا السياق، ليست انفصالًا عن العالم، بل لحظة تأمل تأتي بعد الاندماج الكامل فيه.

من زاوية أخرى، يمكن القول إن هذا المزيج بين التجربة الحياتية والعزلة هو ما يميز العبقرية، فبدون الاحتكاك بالواقع، قد تظل الأفكار سطحية، وبدون التأمل، قد تتبعثر التجارب دون أن تترك أثرًا، إن القدرة على التنقل بين هذين العالمين – عالم الصخب وعالم السكون – هي التي صنعت هؤلاء المبدعين، فقد جمعوا بين الغنى الإنساني الذي اكتسبوه من اختلاطهم بالناس، والنقاء الفكري الذي وفرته لهم العزلة.

في النهاية، يعلمنا هذا الضجيج الداخلي أن الحكمة والإبداع لا يأتيان من فراغ، بل هما نتاج تفاعل دائم مع الحياة بكل ما فيها من تناقضات، العزلة قد تكون المرحلة النهائية التي تتجلى فيها الأفكار، لكنها مبنية على أساس متين من التجارب التي شكلتها تفاصيل الواقع اليومي، وهكذا، تصبح مؤلفات هؤلاء العظماء دليلاً لنا، يرشدنا عبر

متاهات الحياة بضوء الحكمة المستمدة من أعمق التجارب الإنسانية.

المعادلة الصعبة بين نضج العقل وانحدار الجسم

الحياة تضع أمام الإنسان معادلة صعبة، تتجلى في توقيت النضج الذي يأتي غالبًا في منتصف العمر، في هذه المرحلة، يصل الجسم إلى ذروته، ثم يبدأ بالانحدار تدريجيًا، يفقد قوته ونشاطه، بينما يتزامن ذلك مع اكتمال العقل وبداية صعود مرحلة النضج الفكري والروحي، هذا التناقض يخلق شعورًا بالأسف والتأمل، حيث يدرك الإنسان أنه أضاع أثمن أوقاته في مطاردة أحلام واهية، وأنهك قواه الجسدية في أمور لا تستحق، سواء كانت علاقات زائفة، أو سعيًا وراء مكاسب مادية فارغة، أو محاولة كسب ود أناس عابرين لا قيمة حقيقية لهم في حياته.

في هذه اللحظة من الوعي، يبدأ الإنسان في مواجهة نفسه، ينظر إلى السنوات التي مضت ويرى كيف استنزف طاقته في سباقات لا معنى لها، وكيف أفنى شبابه في استرضاء من لا يستحقون، أو في بناء علاقات سطحية

تلاشت مع الوقت، هذا الإدراك، رغم قسوته، يصبح نقطة تحول، يحاول الإنسان أن يستدرك ما فات، فيضاعف جهده ليعوض الخسائر، ويستجمع قواه الجسدية المتبقية، مستفيدًا من تجاربه العديدة ونضجه الفكري لإعادة تقييم مسارات حياته، يصبح هدفه واضحًا: تصحيح الأخطاء، والتركيز على ما ينفع، مدركًا أن العمر قصير وأن كل دقيقة باتت ثمينة لا تحتمل المزيد من الإهدار.

من زاوية أخرى، يمكن رؤية هذه المرحلة كفرصة وليست مجرد أزمة، فالنضج الذي يأتي في منتصف العمر يمنح الإنسان بصيرة لم يكن يمتلكها في شبابه، تحركاته تصبح مدروسة، وقراراته محمولة على خبرة طويلة، مما يجعله قادرًا على تحقيق ما عجز عنه سابقًا، يسعى في هذا الوقت إلى نتيجتين أساسيتين: إرضاء الله عز وجل، واستدراك ما فاته من فرص لبناء حياة ذات معنى، يعمل على تحقيق ذاته، ليس فقط من خلال الطموحات المادية، بل من خلال التصالح مع نفسه، وترك أعباء الماضي وراءه، والتطلع إلى ما يمكن أن يحققه فيما تبقى من عمره.

هذا الصراع الداخلي بين الجسم المنهك والعقل الناضج يكشف عن حقيقة إنسانية عميقة: أن الحياة ليست خطًا

مستقيمًا، بل منحنى يتطلب التكيف المستمر، فالشباب، بكل قوته واندفاعه، قد يفتقر إلى الحكمة، بينما منتصف العمر، رغم ضعف الجسد، يحمل في طياته فرصة للتجديد الروحي والفكري، الإنسان الناضج يدرك أن ما أهدره لم يكن مجرد وقت، بل فرصًا للنمو والإنجاز، وهذا الوعي يدفعه لإعادة ترتيب أولوياته، يتوقف عن السعي وراء الزائف، ويبدأ في البحث عن الجوهر، سواء كان ذلك في علاقاته، أو عمله، أو إيمانه.

لكن هذه المعادلة تحمل أيضًا تحديًا: كيف يمكن للمرء أن يوازن بين قوة العقل المتزايدة وضعف الجسم الآخذ في الانخفاض؟ الإجابة تكمن في الاستفادة من التجارب كوقود للعمل، والتركيز على ما يمكن تحقيقه بدلاً من الندم على ما فات، فالإنسان في هذه المرحلة لا يملك رفاهية الاستسلام، بل يجد نفسه مدفوعًا بحتمية الوقت ليترك بصمة، سواء كانت في حياته الشخصية أو فيما يقدمه للآخرين.

في النهاية، هذا الضجيج الداخلي هو دعوة للتأمل والعمل، إنه يذكرنا بأن النضج، مهما تأخر، يبقى هدية ثمينة، وأن العمر، مهما قصر، يمكن أن يحمل في لحظاته

الأخيـرة إنجــازات تفــوق ســنوات الشــباب، المعادلــة الصــعبة ليست نهاية، بل بداية جديدة لمن يعرف كيف يستثمرها.

غربة الوعي:

-بين قوة الرؤية وعذاب التفرد-

عندما يتجاوز الإنسان محيطه بوعيه، يصبح كائنًا غريبًا في عالم لا يفهمه، قد يراه الآخرون مختلفًا، متخلفًا، أو حتى خارجًا عن المألوف، لأنه ينظر إلى الأحداث من زاوية منطقية وعمق فكري لا يستوعبه من حوله، هذا الوعي المتقدم، الذي يسبق الزمان والمجتمع، يخلق غربة حقيقية، غربة تجعل صاحبها يبدو متفردًا في رؤاه وتعاطيه مع الواقع، حيث يحلل الأمور بمنظور معقول، بينما يراها ضعاف العقول غريبة أو غير مقبولة، فهم يتعاملون مع الحياة بسطحية تصل إلى السذاجة، منقادين للتقليد الأعمى والعادات دون تفكير.

هذا الاغتراب قد يكون مؤلمًا، إذ يشعر الإنسان بعدم الانتماء، محاطًا بوحدة تجعله يتساءل عن مكانه بين الآخرين، لكنه، في الوقت ذاته، يحمل قوة فكرية وبعد رؤية

يمكن أن يكونا بمثابة بذرة لتغيير إيجابي، فالنظرة الثاقبة التي يمتلكها قد تلهم المجتمع أو تدفعه للتقدم، إذا ما قُبلت أفكاره وعمل بها قبل فوات الأوان، لكن المفارقة تكمن في أن هذا الوعي، رغم قيمته، قد يظل حبيسًا داخل صاحبه، محاطًا بجدار من سوء الفهم أو الرفض.

أحيانًا، أجد نفسي متعلقًا بلحظة معينة في اليوم، تلك الساعة التي تنتهي فيها الالتزامات، ويسارع الناس إلى بيوتهم لتناول الغداء والراحة، في طريقهم، يبتكرون أحاديث مسلية عن المساء والليل، خططًا لما تبقى من الوقت، هذه اللحظة تبدو كجزيرة هادئة وسط ضجيج الحياة، لكنها تكشف أيضًا عن روتين متكرر يعيشه الجميع دون وعي كافٍ، وهنا يبرز الفرق: بينما ينسجم الآخرون مع هذا التكرار، يشعر الواعي بثقله، كأنه سجين في دائرة لا تنتهي.

الأديب الروسي تولستوي وصف هذا الشعور بأنه من أقسى صور عذاب الإنسان، أن تعيش مشهدًا يتكرر يوميًا، نفس الوجوه، نفس الأحاديث التافهة عن أمور عديمة القيمة، بينما يظن المتحدثون أن هذا هو المفترض، وأنهم سيستمرون هكذا حتى الموت، لكنك، بوعيك، لا تستطيع تحمل هذا التكرار أو التأقلم معه، هذا، بحسب تولستوي،

هو الجحيم بعينه، إنه ليس مجرد ملل، بل شعور عميق بالاختناق الفكري، حيث يصطدم عقلك المتيقظ بسطحية من حولك، دون أن تجد مخرجًا سوى الانعزال أو الصبر.

من زاوية أخرى، يمكن أن نرى أن هذه الغربة ليست عقابًا فقط، بل امتيازًا أيضًا، الإنسان الواعي يمتلك قدرة على رؤية ما لا يراه الآخرون، وهذا يمنحه فرصة ليكون صوتًا مختلفًا في مجتمعه، لكن هذا الامتياز يأتي بثمن: الوحدة، أو الشعور بأنك خارج السياق، فبينما يرى البعض في التقليد الأعمى راحة، يراه الواعي قيدًا، وبينما يجد الآخرون في السطحية متعة، يراها هو فراغًا لا يطاق.

في النهاية، هذا الضجيج الداخلي هو صراع بين الوعي والمحيط، إنه غربة قد تكون مؤلمة، لكنها تحمل في طياتها بذور التغيير، التحدي يكمن في كيفية التعامل معها: هل نستسلم للوحدة، أم نحولها إلى قوة تدفعنا للأمام؟ تولستوي ربما رأى فيها جحيمًا، لكنها قد تكون أيضًا طريقًا للخلاص الفكري، إذا استطعنا أن نصمد ونحول رؤيتنا إلى نور يهدي الآخرين. السؤال يبقى: هل نتحمل الغربة لأجل الحقيقة، أم نرضى بالانصياع لأجل الراحة؟

المحور الثاني:

القيم الاجتماعية

والدينية

تأملات في حديث "استوصوا بالنساء خيرًا"

في يوم عادي من أيام العمل، اقترب مني أحد الزملاء بنية النصح، مستشهدًا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استوصوا بالنساء خيرًا"، كان يقصد بكلامه أن أحسن معاملة زميلات العمل والطالبات وغيرهن من النساء اللواتي نلتقي بهن في الحياة اليومية، لكنني توقفت لحظة لأفكر في معنى هذا الحديث العظيم ومدى دقة استخدامه في هذا السياق، أجبته أن الحديث الشريف، في أصله، يشير إلى نساء الأسرة: الأمهات، الأخوات، الزوجات، البنات، وبنات الإخوة والأخوات، أي الحريم اللواتي تربطنا بهن صلة قرابة أو مسؤولية شرعية مباشرة.

أما النساء الأجنبيات، فهن خارج هذا الإطار، الشرع الحنيف وضع حدودًا واضحة للتعامل معهن، تقتصر على الضرورة القصوى التي يقتضيها العمل أو الحياة، كتبادل الكلام السريع "خذ وهات" دون زيادة أو نقصان، ليس من الصحيح شرعًا أن يمتد التعامل إلى مكوث طويل في

مكـاتبهن، أو نقاشـات ممتـدة، أو مخالطـة لا داعـي لهـا، فكـل شـخص فـي بيئـة العمـل لـه دوره المحـدد قانونًـا ووظيفيًـا، ولسـتَ مسـؤولًا عـن تقصـير الآخـرين أو أخطـائهم، خاصـة إذا كـانوا مـن النسـاء الأجنبيـات، لسـت وصـيًا علـيهن، ولا قيمًـا لتحاسـبهن أو تتحمـل مسـؤولياتهن، العلاقـة معهـن يجـب أن تظـل منعدمـة خـارج إطـار الضـرورة، لا مـن قريـب ولا مـن بعيد.

إن فهـم هـذا الحـديث يـدعونا إلى إعـادة ترتيـب أولوياتنـا، إذا أردتَ أن تستوصـي بالنسـاء خيـرًا حقًـا، فابـدأ بأهـل بيتـك: أمـك التي ربتـك، أختـك التي تشـاركك الحيـاة، زوجتـك التي هي سـكنك، وبناتـك اللـواتي هـن أمانتـك، هـؤلاء هـن مـن تسـتحق منـك العنايـة والرعايـة والنصـح والـدعم، أمـا بالنسـبة للأجنبيـات، فـأعظم خير يمكـن أن تقدمـه لهـن هـو أن تحفـظ حـدود الشـرع، فتغلـق بـاب الاتصـال غيـر الضـروري، وتبتعـد عـن المخالطـة، وتحـافظ على مسـافة تحمي نفسـك وتحمـيهن من الفتن.

هـذا التأمـل يعكـس ضجيجًا داخليًـا قـد يشـعر بـه كـل مـن يحـاول أن يـوازن بـين متطلبـات الحيـاة العصـرية وقـيم الـدين، العمـل في بيئـات مختلطـة أصـبح واقعًـا لا مفـر منـه في كثير مـن

الأحيان، لكن الالتزام بالضوابط الشرعية هو ما يحفظ للإنسان طمأنينته ويبقيه في مأمن من الزلل، إن الابتعاد عن المخالطة غير الضرورية ليس قسوة أو تجاهلاً، بل هو احترام للحدود التي وضعها الخالق، وحماية للنفس من التشتت والضياع.

في النهاية، يبقى السؤال: كيف نطبق هذا الحديث في حياتنا؟ الإجابة تكمن في الوعي والصدق مع النفس، فلنبدأ بمن هم تحت مسؤوليتنا، ولنترك ما لا يعنينا، حفاظًا على ديننا وأخلاقنا.

فخر الثبات في زمن التغيير

في عالم يتسارع فيه الزمن وتتغير فيه الأشياء بين ليلة وضحاها، أجد نفسي أفتخر بأمور قد يراها البعض بسيطة، لكنها بالنسبة لي كنوز لا تُقدَّر بثمن، أفتخر أن لديّ عددًا قليلًا من الأصحاب والأصدقاء، يمكن عدهم على أصابع اليد الواحدة، لكنهم يحملون في قلوبهم مكانة خاصة لي، رغم أن المسافات الجغرافية تفصلنا - شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، بين الداخل والخارج - إلا أن القرب الشعوري يبقى هو الرابط الأقوى، هؤلاء الأصدقاء، المتناثرون في أصقاع العالم، هم جزء من حياتي، يعرفونني وأعرفهم بما يتجاوز الحدود والمسافات.

وأفتخر أيضًا بثبات أشيائي في زمن التقلبات، أرقام هواتفي لم تتغير منذ عقود؛ أحدها رافقني لاثنين وعشرين عامًا، والآخر لثمانية عشر عامًا، كثيرًا ما يفقد أصدقائي هواتفهم أو يغيرون أرقامهم، لكنهم دائمًا يعودون إليّ بسهولة، لأن أرقامي محفورة في ذاكرتهم، كما اعتادوا على بساطتها واستمراريتها، هذا الثبات ليس مجرد عادة، بل هو تعبير عن هويتي التي أرفض أن تتلاشى مع تغيرات العصر.

كذلك، أجد فخرًا كبيرًا في حسابي على فيسبوك، ذلك البحر الأزرق الهادئ الذي أحتفظ به منذ خمسة عشر عامًا، لم أغيره ولم أتخل عنه، فهو ليس مجرد صفحة رقمية، بل حافظة ذكرياتي، أكتب فيه ما يجول بخاطري، أودع فيه جزءًا من أفكاري وتجاربي، وأجعله حلقة وصل بيني وبين أصدقائي البعيدين، كل منشور فيه هو بمثابة قطعة من حياتي، تحكي قصة يوم مررت به، أو شعور عشته.

حتى في سفري، أحرص على زيارة الأماكن التي اعتدتها، تلك التي صارت جزءًا من روتيني وذكرياتي، لا أبحث عن التجديد فقط من أجل التغيير، بل أجد راحتي في الألفة والاستمرارية، أشعر أن هذا الثبات هو ما يميزني، فأشيائي وحقائقي كالذهب الخالص، لا تصدأ ولا تهت مع مرور الزمن.

في زمن يلهث فيه الناس وراء كل جديد، أجد سعادتي في الحفاظ على ما أملك، أفتخر بقلة أصدقائي لأنها قلة نوعية، وبأرقامي لأنها شاهدة على مسيرتي، وبحسابي لأنه يحمل جزءًا من روحي، وبأماكني لأنها تعكس استقراري.

الحمـد لله على نعمـة الثبـات، فهي في زمـن الضـجيج نعمـة لا تُعوَّض!.

الرفقة بين رافعي الهمم ومثبطي العزائم

في رحلة الحياة، تتشكل أرواحنا بمن نختارهم رفقاء، سواء من الأقارب أو الأصدقاء، هناك من يملكون موهبة خاصة في رؤية الجمال بأبسط الأشياء، ويدركون قيمة المشاعر الإنسانية المختلطة التي تجمع بين الفرح والألم، الأمل والخوف، هؤلاء هم الملهمون، الإيجابيون، الذين يفهمون أن كل فرد هو كيان فريد، مختلف في تكوينه عن غيره، بما يحمله من خصوصيات وتجارب، يكفيهم أن ينطقوا بكلمة بسيطة ليرفعوا معنوياتك، أو يمدوا يدهم ليدفعوا كل محبط أو يائس نحو الأمل، تحس بهم كالسند المتين، سواء كانوا إلى جانبك أو تفصلك عنهم أميال ومسافات بعيدة، لا يحتاجون إلى دوافع مادية أو مصالح شخصية، فما يحركهم هو نقاء أنفسهم، وجمال قلوبهم المليئة بالحب والود والتقدير للآخر.

هؤلاء الرفاق كالنور في الظلام، يعلون الهمم ويزرعون بذور التفاؤل أينما حلوا، كلماتهم ليست مجرد أصوات، بل طاقة تشع من أرواحهم النقية، تحيطك بالدفء وتذكرك بقيمتك، يرون فيك ما قد لا تراه في نفسك، ويؤمنون

بقدراتك حتى عندما تتردد أنت، وجودهم في حياتك نعمة، فهم لا يرفعونك لمجرد الرفع، بل لأنهم يؤمنون أن كل إنسان يستحق أن يعيش بكرامة وأمل، مهما كانت ظروفه.

في المقابل، هناك رفقاء آخرون، من الأقارب أو الأصدقاء، يمثلون النقيض تمامًا، هم المثبطون، الذين يستصغرون كل شيء ويستهزئون بكل شيء، حتى أحلامك ومشاعرك، لا يدركون قيمة الاختلاف بين البشر، ولا يعيرون المشاعر أدنى اهتمام، كلماتهم كالسم، مليئة بالحقد والكراهية، مشبعة بالحسد والغيرة، تتساقط كالحجارة لتسحق المعنويات وتطفئ جذوة الهمة، لا ينطقون إلا بالسلبية والتفاهة، كأن أرواحهم قد أصابها الصدأ، فلم تعد قادرة على رؤية الخير أو نشره، قربهم يثقل الكاهل، ويجعلك تشعر بأن كل خطوة تخطوها لا قيمة لها، وكأن وجودهم مصمم لإسقاط العزائم وتشتيت الأحلام.

هذا التناقض بين الرفقتين يخلق ضجيجًا داخليًا يصعب تجاهله، فالرفقة ليست مجرد أشخاص نتقاسم معهم الوقت، بل هي مرآة تعكس ما نحن عليه، ومؤثر يشكل مسار حياتنا، الرفقاء الإيجابيون كالماء الذي يروي الأرض اليابسة، يغذون الروح ويمنحونها القوة لتزدهر، أما

المثبطون فهم كالريح العاصفة التي تعصف بالأغصان الضعيفة، تتركها مكسورة أو محطمة، والمدهش أن الفرق بينهما لا يكمن في المظهر أو القربى، بل في معدن الروح ونقاء القلب.

في النهاية، يبقى الدعاء هو الملاذ: "قرب الله منا هؤلاء، وأبعد عنا أولئك"، فالحياة أقصر من أن نضيعها مع من لا يرى فينا إلا النقص، وأثمن من أن نحرم أنفسنا من رفقة من يرفعنا بكلمة أو يساندنا بنظرة، اختيار الرفقة ليس ترفًا، بل ضرورة تحدد كيف نعيش وكيف نواجه ضجيجنا الداخلي، فمن نختارهم إما أن يضيئوا طريقنا، أو يطفئوا شعلته، والخيار بأيدينا.

أبواب الخير المغلقة بفعل الشر

في زمن مضى، كنت كثير الأسفار بحكم عملي الذي كان يتراوح بين التجارة تارة ونقل البضائع للتجار تارة أخرى، كانت الطرقات الطويلة التي أقطعها تأخذني عبر قرى ومدن، حيث أصادف أشخاصًا من مختلف الأعمار والأجناس يقفون على قارعات الطرق، يستوقفون السيارات طلبًا لمن يقلهم إلى وجهاتهم، كنت، في كثير من الأحيان، أتوقف لهم، أحمل أولئك الذين لا يثيرون في نفسي ريبة أو خوفًا، كانوا أطفالًا يسيرون عشرات الكيلومترات إلى مدارسهم في الدواوير النائية، أو من عائلات وشيوخ وعجائز ومحتاجين، أو رجالًا يعملون بعيدًا عن بيوتهم كمعلمين وأساتذة ورجال شرطة وموظفين، كنت أرى في ذلك صدقة وإحسانًا، واجبًا إنسانيًا يخفف عنهم عبء التنقلن والحمد لله، طوال تلك السنوات الطويلة، لم أتعرض لمكروه، وكانت تلك الأيام تحمل جمالًا خاصًا، حيث كان المرء يستطيع فعل الخير دون أن يخشى سوءًا قد يلحق به.

لكن هذا الزمن الجميل لم يدم، فقد جاءت أيام أفسدها أشخاص استغلوا حسن النية لتحقيق مآربهم

الخسيسة، بدأت أسمع عن سائقين تعرضوا للسرقة، ليس فقط أموالهم، بل سياراتهم وأمتعتهم، على يد مجرمين تنكروا في زي المحتاجين، لم يتوقف الأمر عند السرقة أو الاعتداء، بل تجاوزه إلى حيل شيطانية لا تخطر على بال، تبين أن شيوخًا ونساءً وأطفالًا، ممن لا يثيرون الشك أو الريبة، كانوا ينقلون المخدرات والأقراص المهلوسة بهذه الطريقة، استغلوا براءة مظهرهم ليخدعوا السائقين الذين يقلونهم بحسن نية، بل وصل الأمر إلى استخدام بعضهم لبطاقاتهم المهنية لتمرير هذه السموم، مما أوقع العديد من السائقين الأبرياء في شباك القانون، احتجزت سياراتهم وشاحناتهم، وسُجنوا لسنوات طويلة، دون أن يكون لهم ذنب سوى أنهم فتحوا باب الخير لمن لا يستحقه.

هذا الضجيج الداخلي الذي أشعر به الآن هو خليط من الحسرة والأسف، حسرة على زمن كان الخير فيه سهلًا، وأسف على ما فعله هؤلاء المجرمون بأبواب الإحسان، لقد دنسوا كل شيء، حتى النيات الطيبة، واستغلوا بساطة الناس وثقتهم استغلالًا شنيعًا، أغلقوا بفعلهم كثيرًا من أبواب الخير، أو ضيقوها على الأقل، فأصبح السائق يتردد ألف مرة قبل أن يتوقف لشخص على الطريق، خوفًا من

أن يكون ذئبًا في ثياب حمل، هذا الخوف ليس مجرد حذر، بل جرح عميق في الثقة الإنسانية التي كانت تجمع بين الناس.

العبرة من ذلك أن الشر، مهما كان صغيرًا في أصله، يمكنه أن يفسد أعظم الأشياء، لقد حرم هؤلاء المجرمون الكثيرين من فعل الخير، وحرموا المحتاجين الحقيقيين من الاستفادة منه، الأطفال الذين كانوا ينتظرون رحمة عابر سبيل، والعجائز الذين لا يقوون على المشي، والعمال الذين يسعون لرزقهم، أصبحوا ضحايا غير مباشرين لهذا الفساد، الثقة التي كانت تربط بين الناس تحولت إلى شك، والإحسان الذي كان يُعد واجبًا أصبح مخاطرة، في النهاية، تبقى الحسرة على زمن كان فيه الخير ممكنًا دون حساب، والدعاء أن تعود الأيام التي يستطيع فيها المرء أن يمد يده للآخر دون أن يخشى أن تُقطع.

دوام النعمة بالشكر:

تأملات من عين فكرون إلى بئر العاتر

بينما كنت أمرّ بمدينة عين فكرون التجارية، تلك المدينة النابضة بالحياة، استعادت ذاكرتي صوراً من الماضي لبئرالعاتر، مدينتي، كما كانت قبل ثلاثة عقود في تسعينيات القرن الماضي، كانت حينها منارة للتجارة الحرة، ملتقى يجذب التجار من مختلف أرجاء الوطن، بل ويمتد صداها خارج حدوده، وفي خضم تأملاتي، ترددت في ذهني الآية الكريمة: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ..." (سورة النحل: 112). كأن تلك الكلمات مرآة تعكس واقع بئر العاتر في أوج عزها: شوارع تعج بالمحلات التجارية، سيارات تحمل أرقام ولايات شتى، وحركة اقتصادية جعلتها قلباً نابضاً للباحثين عن الرزق، لكن، كما تكمل الآية، حين تُنسى النعمة ويُسلك طريق الكفران، يأتي التحول المرير.

ما رأيته في عين فكرون أعاد لي تلك الصورة الزاهية، لكن مع فارق الزمن واختلاف المصير، كانت مدينتي يوماً

تعيش ذات الحيوية، لكن الفساد والطمع اللذين استشريا بين أهلها، ونسيان شكر الله، حوّلا تلك النعمة إلى نقمة، التزوير، الرشوة، التهرب الضريبي، والبعد عن روح الشكر، كلها ألبست المدينة "لباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ"، كما ورد في الآية، وها هي اليوم، خاوية على عروشها، محاصرة اقتصادياً، كأنها تعيش عزلة معبر رفح، بعيدة كل البعد عن أيام مجدها الغابر.

يقول الحديث الصحيح: "من كان في نعمة فلم يشكر، خرج منها كمن لا يشعر"، وتتردد كلمات الجارية تودد، جارية هارون الرشيد: "إن كنت في نعمة فداوم عليها بشكر الإله، فإن المعاصي تزيل النعم". هذا ليس مجرد صدى كلمات قديمة، بل حكمة تتجلى في واقعنا، تأملي في مصير بئر العاتر يتجاوز الحسرة إلى دعوة للتفكر في مصير النعم، لم تستفد المدينة من تلك الفترة الذهبية إلا بسوء السمعة، دون أن تحول تجارتها إلى استثمار مستدام، أو تحافظ على طابعها الفلاحي الأصيل الذي كان يميزها، وفي هذا درس بليغ: النعم لا تدوم إلا بالشكر، والشكر ليس مجرد كلمات تُقال، بل عمل يُبنى، ومسؤولية تُحمل على عاتق الجميع.

مـن هنـا، أرفـع صـوتي بـدعوة قويـة كالسـيف المصـلت: "ارتقـوا، حلّقـوا، كسـروا القوالـب!" إنهـا صـرخة لليقظـة، للخـروج مـن دائـرة التكـرار والتقـاعس، ليسـت مجـرد زينـة كلاميـة، بـل سـلاح يحـث على إعـادة البنـاء واسـتعادة المجـد مـن جديـد، النعمـة أمانـة، والشـكر سـبيل بقائهـا، لقـد تعلمـتُ هـذا الـدرس بـثمن بـاهظ، عبـر تجـارب قاسـية حفـرت في نفسـي تغييـراً عميقـاً، الآخـرون قـد يـرون النتيجـة فقـط، ويسـتنكرونها دون أن يـدركوا الرحلـة الشـاقة التـي قـادتني إليهـا، لكـن الحقيقـة تبقـى: التغييـر، وإن بـدا غريبـاً لهـم، قـد يكون الطريق الوحيد للنجاة.

المحور الثالث:

التحولات الاجتماعية

والعملية

من القلة إلى الكثرة

-تحولات مكانة المرأة في سوق العمل-

بين القلة والكثرة، تتجلى قصة المرأة في سوق العمل، قصة بدأت بنظرات استثنائية وانتهت بتغيرات جذرية، في الأيام الأولى للانفتاح نحو تشغيل المرأة، كانت أعدادها قليلة، نادرة كالجواهر في مختلف القطاعات، سواء العمومية أو الخاصة، حتى في المجالات التقليدية كالصحة والتربية والتعليم، لم تكن المرأة العاملة مشهدًا مألوفًا، حينها، كانت تُضرب بها الأمثال في الانضباط وحسن السلوك، كانت تحترم توقيت العمل، تتقن مهامها، وتقدم خدمات إدارية متميزة للمواطنين، ربما كان ذلك بسبب قلة عددها أولًا، مما جعل عيوبها نادرة الظهور، أو لأنها كانت في بداية بروزها، تخشى نظرة أسرتها ومسؤوليها والمجتمع عمومًا، كانت المرأة حينها كمن يخطو خطواته الأولى بحذر، حريصة على إثبات نفسها في عالم كان يهيمن عليه الرجال، الذين بدورهم كانت عيوبهم واضحة للعيان بسبب كثرتهم وطغيانهم.

لكن مع تقدم السنين، انقلبت الموازين رأسًا على عقب، لم تعد المرأة فئة نادرة، بل أصبحت الأغلبية في كثير من المجالات، لم يقتصر حضورها على القطاعات التقليدية كالصحة والتعليم العالي والقضاء والداخلية، بل امتد ليشمل مناصب كانت حتى وقت قريب حكرًا على الرجال، مثل الجمارك والشرطة والدرك وحتى الجيش، من القلة إلى الكثرة، تحولت المرأة من رمز للتميز إلى جزء لا يتجزأ من المشهد الوظيفي، لكن مع هذا التحول، بدأت العيوب تطفو على السطح، كأن الكثرة كشفت ما كانت القلة تخفيه.

بدأنا نرى مكاتب مغلقة حتى أوقات متأخرة، غيابات متكررة تمتد لأيام، وصراعات مستمرة لإثبات القوة أو الحصول على امتيازات، أصبحت المنافسة بينهن لا تقتصر على المحاسن، بل امتدت لتشمل العيوب، كأن الغيرة - تلك الصفة المتأصلة في الطباع الأنثوية أحيانًا - أصبحت المحرك الرئيسي، تراخيص الغياب تُطلب بلا مبرر واضح، والعمل يُهمل أحيانًا، فتظهر المساوئ التي كانت غائبة في الأيام الأولى، لم يعد الانضباط وحسن السلوك سمتين ملازمتين للمرأة العاملة كما كانتا في السابق، بل أصبحت الكثرة مرآة تعكس كل شيء، الجيد والسيئ على حد سواء.

هـذا التحـول يثيـر تسـاؤلات عميقـة عـن تـأثير العـدد على السـلوك والأداء، عنـدما كانـت المـرأة قلـة، كانـت كالنجمـة النـادرة التي تلمـع في سـماء مظلمـة، مضـطرة لإثبـات جـدارتها في مواجهـة مجتمـع متـردد وعـالم ذكـوري، لكـن مـع الكثـرة، تلاشـى ذلـك الضـغط الـذي كـان يحفزهـا علـى التميـز، وأصـبحت جـزءًا مـن النظـام بكـل مـا فيـه مـن إيجابيـات وسـلبيات، الكثـرة كشـفت العيـوب كمـا تكشـف الريـاح مـا تحـت الأوراق، فلـم تعـد المـرأة اسـتثناءً يُحتفـى بـه، بـل أصبحت واقعًا يحمل كل تناقضات البشر.

هـذا الضـجيج الـداخلي يـدفعنا للتفكيـر: هـل كانـت القلـة هي سـر تميـز المـرأة في بـداياتها؟ أم أن الكثـرة هي التي منحتهـا فرصـة أن تكـون إنسـانة عاديـة، تحمـل المحاسـن والمسـاوئ كغيرهـا؟ ربمـا الحقيقـة تقـع بـين الاثنـين، لكـن مـا هـو مؤكـد أن الانفتـاح على تشـغيل المـرأة غيـر المشـهد الـوظيفي إلى الأبـد، ومـع هـذا التغييـر جـاءت مسـؤولية كبيـرة للحفـاظ على تلـك المكانـة التـي بُنيـت بجهـد السـنين، فـالكثرة قـد تكشـف العيـوب، لكنهـا أيضًـا فرصـة لإثبـات أن المـرأة قـادرة على التكيف والتألق، حتى في زمن التحولات.

الوظيفة العمومية بين جمود القوانين وإهدار الكفاءات

في عالم الوظيفة العمومية، يتردد صدى مشاكل لا حصر لها، تتراكم كالغبار على قوانين عتيقة تحكم هذا القطاع، هذه القوانين، التي أكل عليها الدهر وشرب، تبدو كأنها عدو الموظف والإدارة على حد سواء، فهي لا ترى الكفاءة ولا تعترف بالمواهب أو المردودية، بل تكتفي بالنظر إلى الشهادات والوثائق كمعيار وحيد للتقييم، المفارقة أنها تطالب الموظف بالحصول على مؤهلات إضافية بعد تعيينه، مما يعني غيابات يومية أو أسبوعية للدراسة والامتحانات، بينما ترفض الاعتراف بشهادات حصل عليها قبل التعيين، بحجة أنه لم يستظهرها في مسابقة التوظيف أو اختار العمل في رتبة أقل من مستواه "بمحض إرادته"، لكن، أي إرادة هذه التي تدفع إنسانًا انتظر سنوات للحصول على وظيفة إلى قبول منصب دون مستواه؟ إنه الظرف، لا الاختيار.

هـذا الواقـع يحـرم الجميـع مـن الفائـدة، الموظـف المثـابر، الـذي يملـك خبـرات ومـؤهلات سـابقة، يُمنـع مـن الترقيـة التي قـد تزيـد عزيمتـه وتحفـزه على بـذل المزيـد، والإدارة تُحـرم مـن الاسـتفادة مـن كفـاءات جـاهزة، مكتسـبة مسـبقًا، لا تحتـاج إلى غيابـات أو إعـادة تكـوين، في المقابـل، الموظـف الـذي يـدرس بعـد تعيينـه يضـطر إلى التغيـب، ممـا يـؤثر على مردوديتـه، بينمـا مـن حصـل على مؤهلاتـه قبـل الوظيفـة يمكنـه العمـل بكامـل طاقتـه دون انقطـاع، لكـن القـوانين لا تـرى ذلـك، فهي جامـدة، عالقـة في قوالـب قديمـة لا تتناسـب مـع متطلبـات العصر.

والسـؤال الـذي يطـرح نفسـه: لمـاذا لا تُجـدد هـذه القـوانين المجحفـة؟ لمـاذا لا تُسـتحدث آليـات جديـدة تـنهض بهـذا القطـاع الخامـل وتعيـد إليـه الحيـاة؟ تخيلـوا قانونًـا جديـدًا يُسـمى "التأهيـل الـوظيفي"، على غـرار "التأهيـل الجـامعي" للأسـاتذة، يمكـن أن يشـترط هـذا القـانون معـايير حديثـة للترقيـة تعتمـد على الكفـاءة والالتـزام بـدلًا مـن الشـهادات العشـوائية، على سـبيل المثـال، موظـف يـدير مصلحة لـثلاث سـنوات، ملفـه خـالٍ مـن العقوبـات والغيابـات، يقـدم مـؤهلًا علميًـا (قبـل التعيـين أو بعـده)، ثـم يخضـع لتـربص تطبيقـي

لثلاثة أشهر، يكتب مذكرة تخرج في مجال عمله، يناقشها علميًا وعمليًا، ويحصل بعدها على ترقية تؤهله لتسيير المصلحة بجدارة، ألا يمكن أن يكون هذا حافزًا للموظفين للمثابرة والتنافس على حسن التسيير والانضباط؟

مثل هذا القانون لن يفيد الموظف فقط، بل سيخدم الإدارة أيضًا، فهو يعزز التخصص، يضمن حصول الموظفين على تكوين دوري يتماشى مع تطورات العصر، ويجدد خبراتهم ومواهبهم حسب احتياجات العمل، بدلًا من الترقيات العشوائية التي تعتمد على شهادات غالبًا بعيدة عن الاختصاص، ولا تحمل خبرات عملية ملموسة، يمكن أن تصبح الترقية مكافأة للأداء والالتزام، هكذا، تتحول الوظيفة العمومية من مستنقع راكد إلى مجال تنافسي يشجع على الإبداع ويستثمر في الكفاءات.

لكن الواقع يظل محبطًا، القوانين الحالية تكبل الموظف وتعيق الإدارة، تتجاهل المواهب، وتُضيّع فرص النهوض، الضجيج الداخلي هنا هو صوت الموظف المحبط الذي يرى طاقاته تُهدر، وصوت الإدارة التي تعاني من نقص الكفاءة رغم وفرة الموارد البشرية، التجديد ليس ترفًا، بل ضرورة، فمتى تستيقظ الهيئات المتحكمة لتدرك أن

الاستثمار في الموظف المثابر هو السبيل لإنقاذ هذا القطاع؟ إن لم يكن الآن، فمتى؟

من رواد الإنترنت إلى صدمة تيك توك
رحلة عبر العالم الرقمي

كنت من المبحرين القدامى في عالم الإنترنت منذ أواخر التسعينيات وبدايات القرن الجديد، عاصرتُ منصات رائدة في وقتها مثل "إم إس إن"، "هاي فايف"، "الطاقاد"، "ياهو"، و"مكتوب العرب" وغيرهم، ثم انتقلت مع التطور إلى "يوتيوب"، "تويتر"، و"فيسبوك" الذي رافقته منذ بداياته قبل خمسة عشر عامًا، شهدتُ تطوراته من صفحة بسيطة إلى يوميات، ومن "ماسنجر" إلى "إنستغرام"، "ريلز"، "ستوري"، وصولاً إلى تحوله إلى "ميتا". ظللتُ وفيًا لمنصة البحر الأزرق هذه، أتنقل بين إضافاتها وأتابع تطوراتها باهتمام، لكن مؤخرًا، لفت انتباهي الحديث المتزايد عن منصة جديدة تُدعى "تيك توك"، فقررت استكشافها بفتح حساب، وكانت الصدمة كبيرة.

ما وجدته في "تيك توك" لم يكن سوى الرداءة والهبوط الفكري والأخلاقي، منصة تبدو كوكرٍ للهابطين والسوقيين، تجمع أشخاصًا لا قيمة حقيقية لهم في الواقع المعاش،

تعتمد على الغش والمال، حيث يتصدرها من يدفع أكثر، بغض النظر عن المحتوى أو الجدارة، القيادة فيها لأصحاب الأصوات العالية من التافهين، وهي ملاذ للمراهقين، الرويبضة، وحثالة القوم الذين يتحدثون في كل شيء، حتى في مجالات تتطلب خبرة وعلمًا دقيقًا، كل من هب ودب، من السوقيات والشواذ ومنبوذي المجتمع، يستطيع فتح قناة يجمع فيها التافهين، يفتون ويفسرون بناءً على عواطفهم وعقدهم النفسية، دون أي أساس علمي أو منطقي، هذه المنصة، في نظري، ليست سوى بؤرة فساد عظيمة، تُفسد الأجيال القادمة ببث السموم والتفسخ.

من زاوية أخرى، قد يرى البعض أن "تيك توك" تعكس جانبًا من التطور الرقمي، حيث تمنح الجميع صوتًا في عالم كان محصورًا بالنخبة سابقًا، لكن هذا الصوت، في غالبيته، يفتقر إلى المسؤولية أو العمق، فبدلاً من أن تكون أداة للإبداع أو التعليم، تحولت إلى مسرح للعَرْض الفارغ والتسلية السطحية، الخوارزميات التي تديرها تعزز الانتشار بناءً على المال أو الإثارة، لا الجودة، مما يجعلها منصة تكرس الهبوط بدلاً من الارتقاء، هذا التناقض بين

إمكانيات التكنولوجيا واستخدامها يثير التساؤل: هل نحن من نتحكم بالمنصات، أم أنها تتحكم فينا؟

بالنظر إلى تجربتي الطويلة مع الإنترنت، أرى أن الفارق بين "فيسبوك" و"تيك توك" يكمن في الهدف والجمهور، "فيسبوك"، رغم عيوبه، كان يحمل طابعًا اجتماعيًا وتفاعليًا يسمح بتبادل الأفكار والخبرات، بينما "تيك توك" يبدو كمنصة استهلاكية تهدف إلى الترفيه السريع والانغماس في التفاهة، قد يكون هذا انعكاسًا لتغير اهتمامات الأجيال، حيث يفضل الشباب اليوم الإشباع الفوري على التأمل أو البناء الفكري، لكن هذا لا يبرر ما رأيته: محتوى يعتمد على الاستعراض السطحي، ويفتقر إلى أي قيمة مضافة، بل يساهم في نشر الجهل والانحطاط.

في المقابل، قد يدافع البعض عن "تيك توك" بحجة أنها تمنح الفرصة للجميع للتعبير عن أنفسهم، لكن التعبير وحده لا يكفي إذا كان يفتقر إلى المعنى أو الهدف، منصة تجعل القمة لمن يدفع أو يثير الجدل، بغض النظر عن جودة ما يقدمه، لا يمكن أن تكون سوى أداة لتكريس التفاهة، هذا الضجيج الداخلي الذي شعرتُ به عند استكشافها ليس مجرد ردة فعل شخصية، بل تأمل في ما

وصل إليه عالم الإنترنت الذي كنت من رواده، كنت أتوقع تطورًا يرفع المستوى، لا منصة تهبط به إلى الحضيض.

في النهاية، "تيك توك"، كما رأيتها، ليست مجرد منصة، بل رمز لتحول رقمي يعكس أسوأ ما فينا: السطحية، الغش، والسعي وراء الشهرة دون قيمة، مقابل كل خطوة تقدمناها في التكنولوجيا، يبدو أننا نتراجع خطوتين في الوعي والأخلاق، هذه الصدمة دعوة للتفكير: إلى أين نحن ذاهبون في هذا البحر الرقمي؟

الإنسان والآلة

الإنسان هو من صنع الآلة، ذلك الكائن البارد الذي لا يعرف الحب ولا الكراهية، لا يرتجف خوفًا ولا ينهار تحت وطأة الشوق، الآلة لا تعاني من قرحة في المعدة حين يعصف بها القلق، ولا تتسارع دقاتها أمام أزمة قلبية، ولا تهتز أمام اضطرابات عاطفية تفتت الروح، إنها كتلة من المعدن والأسلاك، مصممة لتعمل دون أن تشعر، لتنفذ دون أن تسأل، لتستمر دون أن تتعب، وفي خضم هذا الوجود المعقد الذي يعيشه الإنسان، قد يبدو أن الفرصة الوحيدة لراحته تكمن في أن يتحول إلى آلة هو نفسه، ولعل البعض قد نجح بالفعل في هذا التحول.

فكر في الأمر: الآلة التي تتخذ شكل إنسان غالبًا ما تهيمن على المجتمعات، الديكتاتور، تلك الآلة المتمسكة بالسلطة، لا يرى في الناس سوى أدوات لتحقيق أهدافه، قلبه مغلق، وعقله محكوم بحسابات السيطرة، الفنان المهووس بفنه، حين يصبح عبده بدلاً من سيده، يتحول إلى آلة للموهبة، تنتج دون توقف، غافلة عن العالم من حولها، والعامل الذي يقدس عمله حتى يذوب فيه، يصبح آلة

تنفيذية، تتحرك بأوامر لا تشكك فيها، وتسير على إيقاع لا يعرف الرفض، في كل هذه الحالات، يحدث التحول تدريجيًا، أحيانًا دون أن يدركه الإنسان نفسه.

ربما تبدأ الرحلة لحظة يشعر الإنسان بالأذى لأول مرة، يقف أمام نفسه ويقول: "لقد جُرحت، لقد تألمت،" فيهمس له لا شعوره، كصوت خفي من الأعماق: "تخلَّ عن كل شعور، أفرغ قلبك من الحب والخوف والأمل، وستصبح محصنًا ضد الأذى،" هذا الهمس قد يكون بداية التحول، حيث يبدأ الإنسان في تقطير إنسانيته قطرة قطرة، يقتلع من روحه كل ما يجعله هشًا، كل ما يجعله حيًا، يصبح آلة، ليس لأنه اختار ذلك بوعي، بل لأن الحياة، بضجيجها وآلامها، دفعته إلى هذا الملاذ البارد.

لكن هل هذه الراحة حقًا؟ أن تصبح آلة قد يحميك من الألم، لكنه يسرق منك الفرح أيضًا، الآلة لا تعرف الضحكة التي تنفجر من القلب، ولا الدمعة التي تنزلق على الخد في لحظة صدق، الإنسان الذي ينجح في أن يصبح آلة قد يفوز بالسكينة، لكنه يخسر نفسه، الديكتاتور يحكم، لكنه وحيد، الفنان يبدع، لكنه يفقد الاتصال بالعالم،

العامل ينجز، لكنه يذوب في دورانه الرتيب، الراحة التي يمنحها هذا التحول هي راحة القبر، سكون بلا حياة.

في هذا الضجيج الداخلي، يبقى السؤال معلقًا: هل صنع الإنسان الآلة لتخدمه، أم ليهرب إليها؟ ربما تكون الآلة مرآة تعكس رغبته في الهروب من إنسانيته، من تلك القدرة المؤلمة على الشعور، لكن الحقيقة أن الإنسان، مهما حاول، لا يمكنه أن يصبح آلة كاملة، سيظل هناك خيط رفيع من الشعور، ولو كان مدفونًا، يذكره بأنه ليس مجرد ترس في آلة، بل كائن يحمل في داخله ضجيجًا لا يمكن إسكاته تمامًا، قد ينجح البعض في خنق هذا الضجيج لفترة، لكنه يعود، كالنبض، ليؤكد أن الحياة، بكل ألمها، هي ما يميزنا عن الآلات التي صنعناها.

المحور الرابع:

الفكر والإبداع

القراءة مرآة الهوى أم نافذة التفكير؟

إن السواد الأعظم من القراء يميلون إلى اختيار الكتب والكتاب الذين يعكسون آراءهم ويؤيدون معتقداتهم التي يعتنقونها، وهذه حقيقة مؤسفة تكشف عن محدودية في التفكير البشري، الإخواني يقرأ للإخواني فقط، والاشتراكي يبحث عن الشيوعي، والسلفي يتمسك بالسلفي، والعلماني ينجذب إلى الليبرالي، وهكذا تستمر الدائرة، هذا الانحياز يجعل ماء التفكير في عقولنا راكدًا، لا يجري ولا يتجدد، بل قد يصل إلى حد الفساد إن لم يكن قد فسد بالفعل، فما الفائدة من قراءة أفكارك مكتوبة بقلم آخر؟ أليس ذلك مجرد تأكيد لما تعتقده دون إضافة حقيقية؟

القراءة، في جوهرها، نافذة مفتوحة على عقول الآخرين، وسيلة لاستكشاف وجهات نظر مختلفة وتوسيع آفاقنا الفكرية، لكن عندما نحصر أنفسنا فيما يوافق هواءنا، نغلق هذه النافذة ونحولها إلى مرآة تعكس صورتنا فقط، هذا السلوك يحد من تطور الفكر، ويجعلنا أسرى لأفكارنا السابقة بدلاً من أن نكون طلابًا للحقيقة، فبدلاً من أن تكون القراءة رحلة اكتشاف، تصبح مجرد أداة

للتعزيز الذاتي، مما يضعف قدرتنا على النقد والتفكير المستقل.

من زاوية أخرى، يمكن أن نرى أن هذا الاتجاه ليس مجرد كسل فكري، بل هو انعكاس لطبيعة بشرية تسعى إلى الراحة والأمان، الناس يفضلون ما يدعم معتقداتهم لأنه يجنبهم الشعور بالقلق أو الاضطراب الذي قد ينتج عن مواجهة أفكار متعارضة، لكن هذا الأمان وهمي، لأنه يحرم الإنسان من فرصة النمو، فالقراءة التي تتحدى آراءنا، وإن كانت صعبة، هي التي تشعل شرارة التفكير وتدفعنا إلى إعادة تقييم ما نؤمن به، قد نجد أنفسنا نطور معتقداتنا، أو نكتشف زوايا جديدة لم نكن نراها من قبل.

لتوسيع آفاق القراءة، هناك خطوات يمكن أن تساعد، أولها تنويع المصادر: قراءة كتب من تيارات فكرية مختلفة، سواء كانت دينية، سياسية، أو فلسفية، تفتح أمامنا أبوابًا لفهم العالم بشكل أعمق، ثانيًا، التحدي: اختيار كتاب يتعارض مع آرائنا قد يكون غير مريح في البداية، لكنه يمنحنا فرصة لاختبار قوة معتقداتنا ومدى صلابتها، ثالثًا، التفتيح الثقافي: قراءة ما كتبه أشخاص من خلفيات

مختلفة، من ثقافات وأزمنة متنوعة، تساعدنا على استيعاب تعقيدات الإنسانية وتجاوز حدود رؤيتنا المحلية.

ومع ذلك، قد يكون هناك بعض الفائدة في قراءة ما يعكس أفكارنا، فإذا كان الكاتب يمتلك أسلوبًا متميزًا أو يقدم رؤية جديدة لنفس الفكرة، فقد نجد في ذلك إلهامًا أو تعزيزًا لفهمنا، لكن هذه الفائدة تبقى محدودة إذا لم نخرج من دائرة الراحة، فالقراءة التي لا تضيف إلى معرفتنا أو تتحدى أفكارنا تصبح مجرد ضجيج داخلي لا طائل منه، يعزز الركود بدلاً من أن يحرك العقل نحو التجدد.

في النهاية، القراءة ليست مجرد هواية، بل أداة لتحرير الفكر، عندما نحصرها فيما يوافق هواءنا، نفقد جوهرها الحقيقي، التحدي الحقيقي يكمن في الخروج من هذه الدائرة الضيقة، والسماح لأنفسنا بالغوص في عقول الآخرين، حتى لو كانت آراؤهم تبدو غريبة أو معارضة، هكذا فقط يمكن أن تتحول القراءة من مرآة تعكس ذواتنا إلى نافذة تطل على العالم، ومن ضجيج داخلي إلى ينبوع للتفكير الحي، هذه الخطوة قد تكون صعبة، لكنها ما يميز الباحث عن الحقيقة عن المتكئ على أوهامه.

من قصة ثانوية إلى رواية أولى

-رحلة الإبداع والتحدي-

وأنا على أعتاب إصدار روايتي الأولى بإذن الله، عادت بي الذاكرة إلى عام 1993، قبل ثلاثين عامًا، عندما كنت طالبًا في السنة الثانية ثانوي، في تلك الفترة، طلب منا أستاذ اللغة العربية كتابة قصة قصيرة لا تتجاوز صفحتين، جلستُ حينها وكتبتُ قصة عن شاب يستعد للسفر بين مدينتين، في محطة النقل، وقع خلاف بينه وبين سائق سيارة أجرة، فرفض السائق نقله وأنزله من مقعده، مفضلاً مسافرًا آخر وصل بعده، أوكل الشاب أمره إلى الله، رغم أن تأخره عن موعده كان يشغله، ركب سيارة أجرة لاحقة، وبعد مسافة على الطريق، صادفوا حادثًا مروريًا وحشدًا من الناس، توقفوا لاستطلاع الأمر، فكانت المفاجأة: سيارة الأجرة التي سبقتهم كانت قد تحطمت، وتوفي جميع ركابها، كانت القصة محبوكة، مترابطة، ومكتوبة بأسلوب مشوق وممتع، نالت إعجاب أستاذي وزملائي، وحصلتُ بفضلها على أعلى علامة.

لكن النجاح لم يمر دون تحديات، بينما أبدى الأستاذ إعجابه وأثنى على موهبتي، تعرضتُ لسخرية بعض الزملاء الحاقدين، ادعوا أمام الأستاذ أنني لا يمكن أن أكون قد كتبتُ مثل هذه القصة المشوقة والمتماسكة بمفردي، واقترحوا أنني ربما نقلتها من إحدى الجرائد، هذا الاتهام، رغم أنه لم يغير من تقدير الأستاذ، ترك أثرًا في نفسي، كان مزيجًا من الفخر بإبداعي والألم من حسد الآخرين، وهو ضجيج داخلي رافقني منذ تلك اللحظة وحتى اليوم، وأنا أستعد لنشر روايتي الأولى.

من زاوية أخرى، تعكس هذه التجربة حقيقة الإبداع وما يصاحبه من تحديات، القصة التي كتبتها لم تكن مجرد واجب دراسي، بل كانت تعبيرًا عن خيالي وقدرتي على ربط الأحداث بطريقة تجذب القارئ، فكرة القدر، التي كانت محور القصة، لم تكن مجرد صدفة، بل انعكاسًا لرؤيتي للحياة وكيف يمكن لقرار بسيط أن يغير مصير الإنسان، إعجاب الأستاذ كان تأكيدًا على أن لدي موهبة تستحق التنمية، بينما سخرية الزملاء كانت تذكيرًا بأن النجاح غالبًا ما يصطدم بالحسد والتشكيك.

هـذه التجربـة ليسـت مجـرد ذكـرى، بـل درس حيـاة، الحاقـدون لـم ينجحـوا في زعزعـة ثقتي، لكـنهم علمـوني أن الإبـداع يحتـاج إلى صـبر وثبـات، ربمـا كـان تشـكيكهم دافعًـا غير مباشـر لأثبت نفسـي، مـن تلـك القصـة القصـيرة إلى روايـة كاملـة بعـد ثلاثـين عامًـا، الضـجيج الـداخلي الـذي شـعرتُ بـه حينهـا - بـين الفـرح بالإنجـاز والغضـب مـن الاتهـام - تحـول اليـوم إلـى قـوة تـدفعني للمضـي قـدمًا، فالكاتـب لا يكتـب ليرضـي الجميـع، بـل ليعبر عـن رؤيتـه، حتى لـو واجـه السـخرية أو الرفض.

مـن منظـور آخـر، يمكـن أن نـرى أن هـذه القصـة تحمـل في طياتهـا تـأملًا في الـزمن والنضـج، مـا بـدأ كواجـب مدرسـي بسـيط تحـول إلى بـذرة لمشـروع أكبر، تلـك القصـة القصـيرة كانـت بدايـة طريـق طويـل، ربمـا لـم أكـن أدرك حينهـا أنـه سـيؤدي إلى روايـة، إعجـاب الأسـتاذ كـان بمثابـة ضـوء أولي، بينمـا سـخرية الـزملاء كانـت ظـلًا حـاول تعتيمـه، لكـن الاثنـين معًـا شـكلا توازنًـا علمني كيـف أواجـه التحـديات في مسـيرتي الأدبية.

فـي النهايـة، وأنـا أسـتعد لإصـدار روايتـي، أرى أن تلـك اللحظـة في 1993 كانـت نقطـة انطـلاق حقيقيـة، الضـجيج

الـــداخلي الـــذي عشـــته حينهـــا هـــو اليـــوم وقـــود لإصـــراري، القصـــة التي أبهـــرت أســـتاذي وزملائـــي، رغـــم حســـد الـــبعض، كانـــت دلـــيلاً على أن الموهبـــة، عنـــدما تُصـــقل بالعمـــل والصـــبر، تستطيع أن تتجاوز كل العقبات وتصل إلى النور.

الإبداع صراع لا سكون

-نداء للسائرين بين ظلال الحروف-

أيها السائرون بين ظلال الحروف وأصداء الكلمات، هل تظنون أن الإبداع يولد من سكون أو يتدثر برداء الراحة؟ كلا، فالنور لا يبزغ إلا بعد ليل دامس، والجبال لا تتشكل إلا بتصادم الرياح مع الصخور، هنا، في هذا المقام، لا مكان للضعف، ولا ملاذ للخوف، ولا مستقر للقلوب المترددة، الإبداع ليس هدية تُمنح، بل معركة تُخاض، وصراع يُبنى على أنقاض التردد والجمود، إنه وليد الألم والتحدي، لا الركون والسكينة.

جئتكم اليوم لا بكلمات ناعمة تُطرب الآذان، ولا برفق يغري الخاملين، بل بنداء صلب كالطود الشامخ، لا يلين إلا لمن يحمل الهمة العالية، ويجعل من الفكر سلاحًا يقتحم به حصون الصمت، أين أنتم من الكلمة التي تُشعل جذوة التفكير؟ أين أنتم من الحرف الذي يهدم جدران الركود؟ هل ظننتم أن الصمت يصنع المعجزات، أو أن التشبث بالماضي يكفي ليحمل الحاضر على كاهله؟ كلا، فالإبداع لا

ينبت في أرض الخمول، ولا يزهر إلا حيث يُسقى بعرق الجهد وشجاعة المواجهة.

هنا، لا مجال للتردد، ولا عذر لمن اختار الزوايا المظلمة ملاذًا، الكلمات التي تُكتب في هذا الفضاء لا قيمة لها إن لم تُحفر على جبين الحقيقة، والأفكار التي تُبذر لا تثمر إلا إذا نبتت من تربة المثابرة، إنها دعوة للنهوض، للتخلي عن الخوف ووضعه على رف النسيان، للوقوف كمن أيقظه حلم بعد سبات طويل، دعوا الكلمات تكون قاسية لتوقظ، والمعاني مرهقة لتصقل، فالإبداع لا يعرف المساومة، ولا يخضع إلا لمن أحنوا قلوبهم للحق، ورفعوا أرواحهم فوق قيود المادة.

من زاوية أخرى، يمكن أن نرى أن هذا الصراع ليس عقابًا، بل هو جوهر الإبداع ذاته، الراحة قد تكون مغرية، لكنها لا تولد شيئًا يُذكر، التاريخ يشهد أن العظماء، من شعراء وكتاب ومفكرين، لم يخلقوا أعمال في فراغ، بل في خضم التحديات والأزمات، النور الذي يشرق من كلماتهم لم يكن سوى انعكاس للظلام الذي عاشوه، والجبال التي شيدوها من أفكارهم كانت نتاج صراعهم مع الرياح العاتية

للواقع، هذا الضجيج الداخلي، بكل حدته، هو ما يفصل بين من يرضى بالسكون ومن يسعى للتغيير.

لكن هذا النداء لا يخلو من تحدٍ، فالإبداع، بقوته، يتطلب شجاعة لمواجهة النقد، والصبر على الوحدة التي قد تصاحب التفرد، من يختار هذا الطريق قد يجد نفسه غريبًا بين من يفضلون السهولة، لكنه في الوقت ذاته يحمل شعلة قادرة على إضاءة الدروب، إنه نداء للحاضرين والغائبين، السامعين والصامتين، ليتركوا التردد وينهضوا بقلوب مفعمة بالعزيمة.

في النهاية، الإبداع ليس رفاهية، بل مسؤولية، إنه دعوة لمن يملكون الجرأة ليواجهوا الظلام بالكلمة، والجمود بالفكرة، هذا الضجيج الداخلي ليس مجرد صوت عابر، بل صرخة تحثنا على الوقوف شامخين، كالجبال، لا ننحني إلا للحقيقة، ولا نرضى إلا بما يرفع الروح إلى أعلى مقاماتها، أيها السائرون بين الحروف، انهضوا، فالإبداع ينتظر من يقاتل من أجله.

حياة الفكرة من القلب إلى الورق

سألني صديق ملم بعالم الفن والكتابة يومًا: "لماذا تختار عناوين رواياتك وقصصك منذ الوهلة الأولى، دون أن تنتظر حتى تنهيها، كما يفعل أهل هذا المجال؟ أليس من المفترض أن ينبثق العنوان من رحم العمل بعد اكتماله؟" كان سؤاله مشروعًا، لكنني توقفت لحظة أنظر إلى أعماقي قبل أن أجيب، الإجابة ليست مجرد تفسير تقني، بل هي بوح بطبيعة الإبداع كما أعيشه.

هناك فرق شاسع، قلت له، بين من يكتب لمجرد الكتابة، وبين من يكتب ليحرر أحاسيس ظلت مدفونة في جوفه كالكنوز تحت الثرى، بين من يصيغ الكلمات كمهمة عقلية، وبين من يستخرج أفكارًا تجمدت لسنوات في عقله، وإبداعات اجتاحت كيانه كالعواصف، تخض مضجعه وتستفزه حتى يمنحها الحياة، أنا لا أكتب لأملأ الصفحات، بل لأتنفس، ولذلك، عندما أختار عنوانًا منذ البداية، فإنه ليس مجرد كلمات عابرة، بل هو البذرة الأولى التي تنبت من قلبي، مكتملة بكل تفاصيلها، بشخصياتها وعقدها وحلولها وحبكتها.

الفكـرة عنـدي لا تـأتي مجـزأة، بـل تولـد كاملـة، كلوحـة تراهـا عـين الخيـال قبـل أن تمسـك الريشـة، منـذ اللحظـة الأولى، أعـرف إلى أيـن ستصـعد الأحـداث إلى ذروتهـا، وكيـف سـتنزل إلى قاعهـا، العنـوان بالنسـبة لي لـيس زينـة تُضـاف في النهايـة، بـل هـو المفتـاح الـذي يفـتح بـاب الروايـة أو القصـة، ويظل ثابتًا حتى آخـر كلمـة، لأنـه يعكـس جـوهر مـا أحمـل، إنـه لـيس قـرارًا تقنيًـا، بـل هـو انعكـاس لطريقتي في الإبـداع: أبـدأ مـن الـروح والوجـدان، ثـم أصـعد بـالفكرة إلى العقـل لأشـكلها وأجعلها حقيقة ملموسة.

هنـاك مـن يكتـب بعقلـه فقـط، يبني الحبكـة كمعادلـة رياضـية، يرتـب الأحـداث كمـا يرتـب مهنـدس خطوطـه، لكنني مـن فئـة أخـرى، فئـة لا تكتـب إلا مـا ينبـع مـن أعماقهـا أولاً، الفكـرة عنـدي تنبـت في القلـب كشـجرة، ثـم تمتـد جـذورها وفروعهـا عبـر الوجـدان، قبـل أن تصـل إلـى العقـل لتُصـقل وتُكتـب، الكتابـة عنـدي ليسـت مجـرد حرفـة، بـل هـي ترجمـة لضـجيج داخلي يطالـب بالحريـة، عنـدما أختـار العنـوان منـذ البدايـة، فأنـا أعلـن ولادة هـذا الضـجيج، أعطيـه اسـمًا يحملـه كعلم يرفرف فوق صفحاتي.

القارئ، في النهاية، لا يقرأ كلماتي بعقله فقط، بل أطمح أن تصل إلى قلبه بعد أن تمر عبر فكره، لأن ما كُتب بالروح يجد طريقه إلى الروح، وما صيغ بالعقل وحده قد يبقى حبيس السطور، اختياري للعنوان منذ البداية ليس عادة، بل هو إيمان بأن الإبداع الحقيقي يبدأ من نبض القلب، لا من حسابات الذهن، إنه صوتي الذي يخرج من غياهب الزمن، يحمل أحاسيسي المدفونة وأفكاري المحبوسة، ليصبح قصة أو رواية تحمل بصمتي منذ كلمتها الأولى.

المبدع والبيئة

أصعب ما يمكن أن يواجه المبدع هو أن يجد نفسه محاصرًا في بيئة نجسة، لا تعترف بالإبداع، بل ترفضه رفضًا ضمنيًا بكل ما تحمله من فوضى وضجيج، بيئة يتحول فيها الصوت إلى طنين دائم في الرأس، كالحشرة التي لا تهدأ، تسرق السكينة وتقتل الأفكار قبل أن تولد، شوارع متسخة، غارقة في الفوضى من كل جانب، تعج بالإزدحامات المرورية والأزقة المكتظة بأناس لا يكفون عن ارتكاب الحماقات، حتى محيط العمل، الذي يفترض أن يكون ملاذًا للإنتاج، يصبح نسخة مصغرة من هذا العفن، فوضويًا، مشتتًا، خانقًا.

المبدع في مثل هذه البيئة كطائر أُجبر على العيش في قفص صدئ، محاط بجدران تتنفس السموم، قد يحاول أن يصنع هدوءًا مزيفًا داخل جحره، يغلق الأبواب، يسدل الستائر، لكنه سرعان ما يكتشف أن الضجيج ليس مجرد أصوات خارجية، بل هو حالة تتسلل إلى رأسه مع كل نفس يتنفسه، إنه ليس مجرد ازعاج عابر، بل طاقة سوداء

تتغلغل في أعماقه، كسم الأفعى الذي تنفثه مامبا سوداء في فريستها، يشل الحواس ويقتل الإبداع في مهده.

في هذا المحيط العفن، تصبح الكتابة صراعًا، والرسم معركة، والتفكير العميق حلمًا بعيد المنال، الأفكار، تلك الشرارات الرقيقة التي تحتاج إلى سكون لتتوهج، تُطفأ بفعل الضجيج المستمر، الإبداع لا يحتمل الفوضى، فهو كزهرة نادرة تحتاج إلى تربة نظيفة وهواء نقي لتنمو، لكن هنا، التربة ملوثة، والهواء مشبع بالغبار والصراخ، كيف لعقل أن يبتكر وسط شوارع تئن تحت وطأة القمامة، وأزقة تختنق بالبشر الذين يبدون وكأنهم يتنافسون في إفساد كل شيء؟

لا سبيل للمبدع في هذه البيئة سوى الهروب، نعم، المغادرة بأي ثمن، لأن البقاء يعني الموت البطيء لكل ما هو جميل داخله، ليس هروبًا من الواقع بقدر ما هو بحث عن ملاذ يسمح للروح بالتنفس، تغيير المحيط ليس ترفًا، بل ضرورة وجودية، كمن ينتزع نفسه من مستنقع آسن ليجد ضفة نهر صافٍ، الإبداع لا يمكن أن يزدهر في قفص الفوضى، بل يحتاج إلى فضاء مفتوح، إلى صمت يسمح

للأفكار أن تتراقص بحرية، إلى نقاء يغذي الخيال بدلاً من أن يخنقه.

لكن المغادرة ليست دائمًا بالجسد، فقد تكون بالعقل والروح، المبدع الحقيقي قد يتعلم كيف يبني جدارًا داخليًا، يعزل به نفسه عن هذا الضجيج، لكن ذلك يتطلب قوة نادرة، وصبرًا قد ينفد، والحقيقة أن البيئة النجسة لا تقتل الإبداع بالضجيج وحده، بل بما تزرعه في النفس من إحباط ويأس، إنها كالسم الذي يتسرب ببطء، يشل الإرادة، ويجعل كل محاولة للإبداع كمن يحاول الغناء وسط عاصفة.

ويبقى السؤال: كيف يصمد المبدع وسط هذا العفن؟ الجواب قد يكون في الرحيل، أو في صيغة مقاومة داخلية، لكن ما هو مؤكد أن الإبداع لا يستسلم بسهولة، حتى وإن كان يصارع من أجل البقاء، لأن المبدع، في نهاية المطاف، هو ذلك النور الذي يحاول أن يضيء وسط الظلام، مهما كان الثمن.

المحور الخامس:

الصراعات النفسية

والاجتماعية

الحنين إلى الأماكن والذكريات

في لحظات الهدوء، أو ربما وسط ضجيج الحياة اليومية، يتسلل إلى القلب شعور بالشوق لأماكن عشنا فيها ذات يوم، إنها ليست مجرد أماكن مادية من حجارة وشوارع، بل هي أوعية تحمل ذكرياتنا، أفراحنا، وآلامنا، مثلما نشتاق لأشخاص كانت عشرتهم طيبة في زمن مضى، نشتاق لتلك الأماكن التي شهدت خطواتنا، ضحكاتنا، وربما دموعنا أيضًا، هذا الحنين يدفعنا أحيانًا للعودة، لنقف أمام طرقاتها ومبانيها ومقاهيها، كمن يزور صديقًا قديمًا ليسأل عن أحواله، عن علله وأفراحه، وعن تلك الأسرار التي لا تُباح إلا لأهلها وأحبابها.

عندما أذهب لزيارة مكان عشت فيه منذ سنوات، أشعر وكأنني أفتح كتابًا قديمًا، كل صفحة فيه تحمل قصة، الشوارع التي مشيت عليها تحكي عن أيام الشباب والطموح، والمباني التي كانت شاهدة على لحظات الفرح أو الحزن تروي ما لا يمكن للكلمات أن تعبر عنه، أتفقد المقاهي التي جلست فيها ذات يوم، أتذكر رائحة القهوة

وأصوات المحادثات التي كانت تملأ المكان، أنظر إلى الجدران وكأنني أسألها: هل ما زلتِ تتذكرينني؟ هل ما زالت ذكراي محفورة في زواياك؟

هذا الشوق للأماكن يشبه الشوق للأشخاص، لكنه يحمل طابعًا خاصًا، الأشخاص قد يرحلون، يتغيرون، أو تنقطع بهم السبل، لكن الأماكن تبقى صامتة، صامدة، تحتفظ بما كان فيها دون أن تشتكي أو تتغير كثيرًا، حتى لو أُضيفت إليها طبقة جديدة من الطلاء، أو تغيرت واجهاتها، فإن جوهرها يظل كما هو، يحمل عبق الماضي وهمسات الذكريات، أمشي في طرقاتها وأتخيل نفسي في تلك السنوات الخوالي، أسترجع لحظات كنت أظنها عابرة، لكنها تركت أثرًا عميقًا في نفسي.

في هذه الزيارات، أشعر أنني لا أتفقد المكان فحسب، بل أتفقد جزءًا من نفسي تركته هناك، كل زاوية تحمل سرًا، كل ركن يحتفظ بلحظة، أتساءل عن أغوارها ومكنوناتها، تلك الأسرار التي لا تكشفها إلا لمن عاش فيها وعرفها حق المعرفة، إنها كائن حي بطريقة ما، تتنفس من خلال ذكريات ساكنيها، تحمل أفراحهم وآلامهم، وتبقى وفية لهم حتى بعد رحيلهم.

هـذا الحنـين لـيس مجـرد نـزوة عـابرة، بـل هـو تعبيـر عـن ارتباطنـا العميـق بالماضـي، بتلـك الأمـاكن التي شـكلت جـزءًا مـن هويتنـا، نشـتاق لهـا لأنهـا كانـت مـلاذًا، أو مسـرحًا لأحلامنـا، أو شـاهدة على تحولاتنـا، وعنـدما نعـود إليهـا، لا نعـود فقـط لنرى مـا تغير، بـل لنسـتعيد شـيئًا مـن أنفسـنا، لنعـانق ذكـرى، أو لنطمئن أن ما كان لم يضع هباءً.

فـي النهايـة، تظـل الأمـاكن كالأصـدقاء الصـامتين، لا يتحـدثون لكـنهم يسـتمعون، لا يتغيـرون كثيـرًا لكـنهم يحتفظـون بكـل شـيء، أزورهـا لأنني أشـتاق، ولأنني أجـد فيهـا جـزءًا منـي مـا زال يعـيش هنـاك، بـين طرقاتهـا ومبانيهـا ومقاهيهـا، إنهـا ليسـت مجـرد أمـاكن، بـل هـي حيـاة عشـناها، وذكريـات نحملهـا، وضـجيج داخلي يهمـس لنـا بـأن الماضـي لـم يمت بعد.

المخضرم بين الزمان والمكان

عندما نتحدث عن "المخضرم"، يتبادر إلى الذهن تعريف تقليدي: شخص عاش بين فترتين مختلفتين جذريًا، كالجاهلية والإسلام، حيث اختبر تحولات كبرى شكلت تاريخه وحياته، لكن هذا التعريف، رغم عمقه، قد يكون ناقصًا إذا لم نوسع أفقه ليشمل أبعادًا أخرى، المخضرم ليس مجرد شاهد على الزمن، بل قد يكون أيضًا شاهدًا على المكان، فهناك نوعان من المخضرمين: مخضرم زماني ومخضرم مكاني، وكلاهما يحمل في داخله تجربة غنية تتجاوز الحدود الظاهرة.

المخضرم الزماني هو من عاش فترتين متمايزتين، كمن شهد الثورة ثم الاستقلال، أو عاصر الملكية ثم الرئاسة، أو مر بالنظام البرلماني والرئاسي، بل وحتى بالعشرية السوداء والمصالحة الوطنية، هذا الشخص ليس مجرد عابر سبيل في التاريخ، بل هو وعاء يحمل ذكريات أزمنة متضاربة، اختبر فيها الانقلابات السياسية، التحولات الاجتماعية، والتقلبات الاقتصادية، عيناه رأتا كيف تتغير الأنظمة، وقلبه شعر بثقل السنوات التي تحمل الأمل تارة والخيبة

تارة أخرى، هو كتاب حي، كل فصل فيه يروي قصة عصر، وكل صفحة تحمل درسًا من دروس الحياة.

أما المخضرم المكاني، فهو من تجاوز حدود الزمن ليعيش في أمكنة متعددة، متنوعة، متباينة، عاش في الريف ببساطته وهدوئه، ثم انتقل إلى المدينة بضجيجها وسرعتها، ومنها إلى المدن الكبرى الشمالية بتطورها، أو المدن الصغرى الداخلية بتقاليدها، أو حتى الجنوبية بطبيعتها الخاصة، ربما سكن القرى بألفة أهلها، ثم انتقل إلى العواصم بفخامتها وتعقيدها، هذا الشخص لم يكتفِ بالعيش في مكان واحد، بل نهل من أغوار كل بقعة، عرف طرق عيش سكانها، تفكيرهم المتباين، عاداتهم المختلفة، واختلط بهم لسنوات طويلة، هو ليس مجرد زائر، بل صار جزءًا من نسيج كل مكان، يحمل في داخله خليطًا من الأصوات، الروائح، والصور التي شكلت شخصيته.

والمخضرم الذي يجمع بين الزمان والمكان هو الأكمل معرفة وتجربة وحسية، تخيل شخصًا عاش الثورة في قرية نائية، ثم الاستقلال في مدينة صغيرة، ثم انتقل إلى عاصمة خلال فترة التحولات السياسية، هذا الإنسان ليس مجرد شاهد، بل موسوعة حية، عيناه رأتا كيف تتغير الأزمنة

والأمكنة، وأذناه سمعتا همسات القرويين وصخب المدنيين، وقلبه شعر بتناقضات الحياة بين البساطة والتعقيد، خبرته لا تقتصر على التاريخ السياسي، بل تمتد إلى التاريخ الإنساني، فهو يعرف كيف يفكر أهل الريف وكيف يعيش أهل العواصم، وكيف تؤثر الظروف الزمانية على سلوك الناس في كل مكان.

هذا الضجيج الداخلي الذي يحمله المخضرم هو خليط من الأصوات والصور التي جمعها عبر السنين والأماكن، إنه ليس ضجيجًا مزعجًا، بل سيمفونية معرفة تجعله مختلفًا، فهو يرى ما لا يراه غيره، ويفهم ما يعجز عنه الآخرون، لأن تجربته لم تقتصر على زمن أو مكان واحد، المخضرم الزماني والمكاني هو كنز حي، يحمل في داخله حكمة الأزمنة وتنوع الأمكنة، ويذكرنا أن الحياة ليست مجرد لحظة أو بقعة، بل رحلة طويلة عبر الزمان والمكان، تترك في النفس أثرًا لا يمحى.

لا تدخل حربًا لا تعنيك

الحياة مليئة بالمواقف التي تختبر حكمتنا وقدرتنا على ضبط النفس، ومنها ما عشته قبل سنوات عندما كنت مكلفًا بتسيير مصلحة ما بعد التدرج، أو الدكتوراه، في إحدى الكليات، كانت نهاية كل عام دراسي تُختتم بمناقشات أطروحات الدكتوراه، تجمع أساتذة وطلابًا من شتى الاختصاصات، في إحدى المرات، وقع خطأ بسيط في محضر رسمي صادر عن المجلس العلمي، حيث ذُكر اسم أستاذ برتبة أقل على رأس لجنة المناقشة، بينما كان من المفترض أن تترأسها أستاذة برتبة بروفيسور أعلى منه، كنت أعمل على استكمال الوثائق الإدارية لضمان سير المناقشة، لكن لم يكن من صلاحياتي تصحيح هذا الخطأ، فهو لم يصدر عني، بل عن المجلس العلمي للكلية، إعادة المحضر للتصحيح كانت تعني تأخيرًا لثلاثة أشهر، وفقًا للقانون الذي يحدد موعد انعقاد المجلس التالي، وهو ما كان سيؤثر بشكل كبير على الطالب المعني.

كان الطالب قد استعد ماديًا ونفسيًا لهذه اللحظة، وهو أب أسرة عاطل عن العمل، يعيش ظروفًا مادية

صعبة، وينتظر المناقشة ليلتحق بمسابقات التوظيف القريبة، أي تأخير كان سيُثقل كاهله بالمزيد من الضغوط المالية والنفسية، فقط بسبب خطأ مطبعي بسيط لم يكن له علاقة بجوهر عمله، في المقابل، انتهت أستاذة من لجنة المناقشة للخطأ، وأخبرت زميلتها الأعلى رتبة، واتفقتا على تأخير تقديم تقارير المناقشة حتى يُصحح المحضر، متعنتتين في موقفهما، بينما رأى بقية الأساتذة، سواء من المجلس العلمي أو لجنة المناقشة، أن الخطأ لا يستحق التأخير، ويمكن تمرير المناقشة ثم تصحيحه لاحقًا.

شعرت بألم عميق تجاه الطالب، فقد كان ضحية نزاع لم يكن طرفًا فيه، كان بإمكان الإدارة تغيير الأعضاء المتماطلين وإرسال تقرير ضدهم، لكنني وجدت نفسي أدخل في جدال مع الأستاذة التي حرضت زميلتها على التأخير، نكاية بالأستاذ الأقل رتبة، كانت علاقتي بها قبل ذلك طيبة، مليئة بالود والاحترام، لكن هذا الجدال تحول إلى قطيعة بيننا، وبعد مدة، صُحح الخطأ، وقُدمت التقارير، وناقش الطالب أطروحته بنجاح، أحضر هدايا لتكريم الجميع، بما في ذلك الأستاذتان اللتان تسببتا في التأخير، وعادت العلاقات بين أعضاء اللجنة والمجلس إلى

سابق ودها، بينما بقيت علاقتي بتلك الأستاذة مقطوعة حتى اليوم.

هذه التجربة تركت في نفسي ضجيجًا داخليًا لم يهدأ بسهولة، كنت قد تورطت في حرب لم تكن لي، نزاع لم يكن على أرضي، ولم يكن من صلاحياتي أو مسؤولياتي، المغزى واضح: "لا تدخل حربًا لا تعنيك"، لو التزمت بحدودي، ودافعت فقط عما يخصني، لما خسرت علاقة طيبة، ولما تحملت وطأة صراع لم أكن طرفًا أصيلًا فيه، الطالب حصل على حقه في النهاية، والأساتذة تصالحوا، لكنني بقيت الخاسر الوحيد لأنني تجاوزت دوري.

الحياة تعلمنا أحيانًا بالطريقة الصعبة أن التدخل في شؤون الآخرين، حتى بنية حسنة، قد يعود علينا بالضرر، الحكمة تقتضي أن نعرف متى نتحرك ومتى نتوقف، أن نلتزم بحدودنا، ونترك لكل طرف أن يحل مشكلته بنفسه، فالضجيج الداخلي الذي نشعر به بعد خسارة غير ضرورية هو أعلى صوت يذكرنا بأن الحرب التي لا تعنينا ليست سوى فخ نصنعه لأنفسنا.

الحسد البشري وفرص الارتقاء الضائعة

في بدايات حياتك، كنت تنظر إلى إخوتك وأصدقائك على أنهم الدعم الذي ستستند إليه عندما تعصف بك الشدائد، كنت تتوقع أن يمدوا لك يد العون في الأوقات العصيبة، حين تشعر أنك في أمس الحاجة إلى من يربت على كتفك، أو يساعدك على تخطي الحواجز التي بدت لك كهاوية عميقة أو شقوق أودية لا تُعبر، هؤلاء، في قرارة أنفسهم، كانوا يرغبون في مساعدتك، وربما كان بإمكانهم فعل ذلك بسهولة، لكنهم اختاروا ألا يفعلوا، لم يريدوا أن يصعدوا بك إلى قاربهم، أو يبسطوا أجنحتهم لتصل معهم إلى القمة التي وصلوا إليها بجهدهم وتعبهم، خوفهم لم يكن من فشلك، بل من نجاحك؛ خافوا أن تساويهم أو تتجاوزهم، أو أن يروا فيك من "داس عليهم" ليصل إلى قمم أعلى مما حققوه.

هذا السلوك ليس غريبًا، بل هو جزء من طباع البشر التي تتشابك فيها المشاعر الإيجابية مع الحسد والأنانية، انظر إلى إخوة يوسف عليه السلام: كانوا يحبونه، لكنهم لم يطيقوا أن تكون له مكانة في قلب أبيه تفوق مكانتهم،

فدفعهم الحسد إلى التخلص منه، وقابيل لم يكره هابيل لذاته، بل حسده لأن الله تقبل قربان أخيه ولم يتقبل قربانه، هكذا هم البشر في كثير من الأحيان: يتمنون لك الخير، لكن بمقدار محدود، يتمنون لك النجاح، لكن بشرط ألا يعلو نجاحك على نجاحهم، ويريدون لك الجنة، لكن ليس الفردوس الأعلى الذي يحلمون به لأنفسهم فقط.

من زاوية أخرى، يمكننا أن نرى أن هذا الموقف لا يعكس فقط ضعفًا في الآخرين، بل أيضًا فرصة ضائعة، لو أن هؤلاء الأصدقاء أو الإخوة ساعدوك في بداياتك، حين كنت في أوج قوتك وشبابك، لربما سلكت طرقًا مختلفة عما اختاروه هم، واكتشفت آفاقًا جديدة لم يخطر ببالهم استكشافها، ربما كنت أنت من يرتقي إلى قمم أعلى، ثم تمد يدك لتسحبهم معك، كما فعلوا بك في البداية، لكن خوفهم من تفوقك، أو من أن تشاركهم مكانتهم، جعلهم يفوتون فرصة النمو المشترك الذي كان يمكن أن يفيدهم جميعًا.

هذا الضجيج الداخلي، الممزوج بالحسد والتردد، يظهر في تفاصيل حياتنا اليومية، فكم من مرة رأينا أشخاصًا يمتلكون القدرة على مساعدة الآخرين، لكنهم يتراجعون لأسباب تتعلق بالمنافسة أو الخوف من فقدان مكانتهم؟

وكم من مرة كنا نحن أنفسنا في هذا الموقف، مترددين في دعم من حولنا خوفًا من أن يتفوقوا علينا؟ إنه صراع داخلي يعكس تعقيد النفس البشرية، حيث تتصارع الرغبة في الخير مع الأنانية وحب الذات.

لكن المفارقة تكمن في أن المساعدة لا تعني بالضرورة التضحية بالمكانة، فالتاريخ يعلمنا أن العظماء الذين مدوا أيديهم للآخرين لم يفقدوا شيئًا، بل زادت مكانتهم، ساعد الأنبياء أتباعهم، وساعد المعلمون تلاميذهم، وفي كل مرة، كان النجاح المشترك يرفع الجميع، لو أدرك هؤلاء الإخوة والأصدقاء أن نجاحك قد يكون مفتاحًا لنجاحهم هم أيضًا، لما ترددوا في مد يد العون.

في النهاية، يبقى هذا الضجيج الداخلي درسًا لنا جميعًا، إنه دعوة للتغلب على الحسد والخوف، وللتفكير في الإمكانيات التي قد تفتحها المساعدة المتبادلة، فالحياة ليست سباقًا إلى قمة واحدة، بل رحلة يمكن أن نصعد فيها معًا إلى آفاق أرحب، لو تجاوزنا أنانيتنا وآمنا بقيمة التعاون.

زمن اللغط والفساد

-نجاة النفس بين العزلة والرفقة الصالحة-

في هذا الزمان الذي كثر فيه اللغط والكلام الفارغ، أصبح العامة يتدخلون في شؤون الخاصة، وصار بإمكان كل من هب ودب أن يفتح قناة على وسائل التواصل الاجتماعي، يصنع لنفسه جمهورًا، ويحشر أنفه في كل صغيرة وكبيرة دون علم أو معرفة، يقوده في ذلك هواه، ويتبعه جيش من التافهين الذين يلهثون وراء شهواتهم، يجتمعون على إفساد العقول، ويبثون سمومهم في رؤوس صغار السن والعقول من النساء والأطفال، يعزفون على الأوتار الحساسة، يلعبون بالعواطف، ويستغلون ضعف النفوس لنشر الفساد، في هذا الوقت الذي تفشى فيه الشر، وتسابق الناس على حب الدنيا، وأصبح همهم الوحيد التمتع بملذاتها الزائلة، يصبح الأجدر بكل مؤمن أن يقلل من مخالطة الناس قدر استطاعته، ويشتغل بإصلاح قلبه وتهذيب نفسه من الشوائب، حذرًا من شياطين الإنس التي قد تتخطفه وتهوي به إلى الهاوية.

النـــاس اليـــوم، أغلـــبهم فـــي ضـــلالة إلا مـــن عصـــم الله، وزماننـا تحـول إلى زمـن سـوء يغلـب عليـه الهـوى والعبـث، مـن أراد النجـاة فلـيحفظ رأس مالـه، وليحـذر أن يضـيعه في اللهـو والتفاهـــات، فالـــدنيا بحـــر عميـــق، أغـــرت الكثيـــرين بزينتهـــا، وأغـرقتهم في ظلماتهـا، لكـن وسـط هـذا الضجيج، هنـاك منـارة للنجـــاة: الرفيـــق الصـــالح، إذا وجـــدنا ذلـــك الصـــديق الـــذي ترحـــل قلبـــه عـــن الـــدنيا، تعفـــف عـــن شـــهواتها، وترفـــع عـــن تفاهاتهـا، فلنحـرص على صـحبته، ولنجعلـه رفيقًـا في سـفرنا إلى الله، فالرفقـة الصـالحة قـارب النجـاة الـذي يعيننـا على اجتيـــاز هـــذا البحـــر المضـــطرب، ويحفظنـــا مـــن الانـــزلاق إلـــى الهاوية التي سقط فيها الكثيرون.

مـــن زاويـــة أخـــرى، يمكـــن أن نـــرى أن هـــذا الواقـــع لـــيس جديـــدًا تمامًـــا، ففـــي كـــل زمـــان، كانـــت هنـــاك أصـــوات تافهـــة تحـــاول الســـيطرة، لكـــن مـــا يميـــز عصـــرنا هـــو ســـرعة انتشـــارها عبـــر التكنولوجيـــا، هـــذه الأدوات، التـــي كـــان يمكـــن أن تكـــون وســـيلة للمعرفـــة، تحولـــت إلـــى منـــابر للجهـــل والفســـاد، مـــن يتحـــدث بـــلا علـــم يجـــد جمهـــورًا يصـــفق لـــه، لـــيس لأنـــه يقـــدم قيمـــة، بـــل لأنـــه يغـــذي أهـــواءهم ويـــؤجج عـــواطفهم، هـــذا الضـــجيج الـــداخلي الـــذي نشـــعر بـــه هـــو نتيجـــة هـــذا الـــزخم

الهائل من الأصوات التي تفتقر إلى الحكمة، وتسعى فقط إلى الإثارة والانتشار.

لكن وسط هذا الظلام، يبقى الأمل في العودة إلى الذات، تقليل المخالطة لا يعني العزلة التامة، بل اختيار ما ينفع النفس ويحميها، الاشتغال بإصلاح القلب هو السلاح الأقوى ضد هذا الفساد، فالقلب السليم هو الذي يميز بين الحق والباطل، ويرفض أن ينجرف مع تيار التفاهة، والرفيق الصالح هو العون في هذه المهمة، لأنه يذكرنا بما نسيناه، ويعيننا على ما قد نعجز عنه بمفردنا.

قوله تعالى في سورة الكهف: "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعدو عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا..."، هو بمثابة خارطة طريق، إنه دعوة للتمسك بالصحبة الصادقة، والابتعاد عن من أغفل الله قلوبهم فاتبعوا أهواءهم، في زمن السوء، النجاة ليست في مواجهة كل الضجيج، بل في الانتقاء الحكيم لمن نسمع ومن نصاحب، هذا الضجيج الداخلي هو تحذير وفرصة: تحذير من الغرق في بحر الدنيا، وفرصة للنجاة بالعودة إلى الله والتمسك بقارب الإيمان.

المحور السادس:

السلطة والمجتمع

جوليفر بين الأقزام والعمالقة

يُحكى أن في قرية إنجليزية قديمة، تعود إلى القرون الوسطى، عاش رجل يُدعى جوليفر، كان قد عاد لتوه من بلاد اللوليسيين، وهي أرض غريبة لا يتجاوز فيها طول البشر بوصتين، هناك، أمضى جوليفر وقتًا طويلًا حتى اعتاد أن يرى نفسه عملاقًا بينهم، ضخمًا يفوق الجميع بقامته وهيبته، لكن عندما عاد إلى شوارع لندن، لم يستطع التخلص من هذا الشعور المتأصل فيه، كان يسير بين المارة وهو يصيح دون إرادة، مهيبًا بالعربات والناس أن يفسحوا له الطريق، خوفًا من أن يدوسهم بقدميه العملاقتين، في خياله، ظل الناس أقزامًا صغيرة، وهو العملاق الذي يهيمن على المشهد، لكن الواقع كان مختلفًا؛ فقد استقبله الناس بالضحك الساخر، وأمطروه بالشتائم والسباب، بل وذهب البعض من الغلاظ إلى حد ضربه بسياطهم، كأنهم يعاقبون جنونه الذي لم يدرك حقيقة مكانه.

قصة جوليفر ليست مجرد حكاية خيالية، بل تحمل في طياتها مغزى عميقًا عن طباع البشر وتصوراتهم، كثيرون منا يعيشون فترات طويلة بين "أقزام العقول والسرائر

والنيات"، أي بين أشخاص ضيقي الأفق، محدودي التفكير، قليلي الطموح أو النبل، في هذه البيئات، قد يشعر المرء بأنه متميز، كبير، بل عملاق بينهم، لأن المقارنة تجعله يبدو أعلى شأنًا، لكن المشكلة تظهر عندما ينتقل هؤلاء إلى مجتمعات أخرى، أكثر تنوعًا وتطورًا، ويحملون معهم نفس النظرة، يظنون أن الجميع أقزام، وأنهم وحدهم العمالقة، دون أن يدركوا أن دورهم قد تغير، وربما أصبحوا هم النملة التي قد تُداس تحت أقدام الآخرين.

هذا الضجيج الداخلي الذي يعيشه "جوليفر الحديث" هو صراع بين الوهم والحقيقة، الوهم الذي يزرعه العيش بين الصغار يجعل الإنسان يبالغ في تقدير نفسه، فيظن أن تفوقه دائم وأن مكانته ثابتة، بينما الحقيقة تكشف أن القيمة نسبية، تتغير بتغير البيئة والمقاييس، من عاش بين أقزام العقول قد يجد نفسه عاجزًا عن التكيف عندما يواجه عقولًا أكبر، أو أخلاقًا أرفع، أو طموحات أوسع، بدلًا من أن يتعلم ويتطور، يتمسك بصورته القديمة، فيصير أضحوكة كجوليفر، يُسخر منه الآخرون، أو يُعاقب بقسوة الواقع.

المغـزى هنـا دعـوة للتأمـل في أنفسـنا وبيئاتنـا، هـل نحـن عمالقـة حقًـا، أم أننـا مجـرد انعكـاس لمـن حولنـا؟ العـيش بـين الأقــزام قــد يمــنح شــعورًا زائفًــا بالعظمــة، لكنــه لا يعكــس الحقيقــة الكاملــة، التحــدي الحقيقــي يكمــن في الخــروج مــن هــذه الــدائرة، ومواجهــة العــالم بتواضــع وعقــل منفــتح، فالإنســان الــذي لا يــدرك حــدوده، ولا يتكيــف مــع الجديــد، قــد يظـل أسـير خيالـه، يصـرخ في شـوارع الحيـاة دون أن يسـمعه أحــد، أو يُــداس دون أن يشــعر، الحكمــة تقتضــي أن نعــرف متى نكـون عمالقـة، ومتى نكـون مجـرد جـزء مـن مشـهد أكبـر، ففـي ذلـك نجـاة مـن الضـجيج الـداخلي الـذي يعمينـا عـن الحقيقة.

عندما يغيب القانون وتسود الفوضى

أصبحنا نعيش اليوم في ظل "حكم الغاب"، حيث يسود قانون القوي يأكل الضعيف في مختلف الميادين: الاجتماعية، السياسية، الرياضية، والاقتصادية، لقد تغلبت الحيوانية على القيم الإنسانية، وأصبحت العواطف النبيلة، الوازع الديني، والضمير البشري، غائبة عن المشهد، السبب الرئيسي في ذلك هو غياب القانون، أو تغييبه السلطوي عن عمد، وضعف تطبيق العدالة ولو بنسبة معقولة، ردع المعتدين أصبح شبه معدوم، مما سمح للفوضى أن تطفو على السطح، ولم يعد بإمكان أحد، على الأقل في الوقت الحالي، إعادة الأمور إلى نصابها.

نلاحظ هذا الانهيار بوضوح في الحياة اليومية، الزيادات العشوائية في الأسعار، التي قد تصل أحيانًا إلى الضعف أو أكثر، خاصة في المناسبات الدينية والوطنية، أفسدت فرحة الأعياد والاحتفالات، بدلاً من البهجة، أصبح الخوف، الترقب، والتذمر يعم الجميع، الضعيف لم يعد أمامه سوى الصمت أو الشكوى العقيمة، فلا حيلة له في مواجهة هذا الجشع والاستغلال، إذا كانت هذه الفوضى تحدث في

ظل غياب جزئي للقانون، فماذا سيكون الحال لو غاب كليًا؟ وماذا لو تخلى الحاكم عن دوره في بسط الأمن وحماية الأنفس والمؤسسات؟ الإجابة واضحة: الهرج والمرج سيكون عنوان كل يوم وساعة ودقيقة، وستتحول الحياة إلى غابة بلا ضوابط.

من زاوية أخرى، يمكننا أن نرى أن غياب القانون ليس مجرد فشل إداري، بل انهيار للقيم التي تحفظ المجتمع، التاريخ يعلمنا أن السلطان أو الحاكم هو "زمام الأمور"، كما وصفه ابن عبد ربه في "العقد الفريد"، هو نظام الحقوق، وقوام الحدود، والقطب الذي تدور عليه الدنيا والدين، به يُحمى الحريم، ينتصر المظلوم، يُقمع الظالم، ويأمن الخائف، الحكماء قالوا: "إمام عادل خير من مطر وابل، وإمام غشوم خير من فتنة تدوم"، وهذا يعكس أهمية وجود سلطة، حتى لو كانت ناقصة، على انعدامها الذي يفضي إلى الفوضى، بل إن وهب بن منبه نقل عن الله فيما أوحى إلى داود عليه السلام: "قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم رحمة، ومن عصاني جعلتهم نقمة"، هذا يبرز أن العدالة تبدأ من تطبيق القانون، وأن غيابه يفتح الباب للظلم والفساد.

لكن الواقع الذي نعيشه اليوم يظهر عكس ذلك، الفوضى التي نراها في الأسواق، حيث يستغل التجار المناسبات لمضاعفة الأسعار، ليست سوى مثال صغير على ما يمكن أن يحدث عندما يغيب الردع، السياسة أصبحت ساحة للقوة لا للحق، والرياضة تحولت إلى تنافس يفتقر للروح، والاقتصاد بات مرتعًا للأقوياء الذين يسحقون الضعفاء، الضحية دائمًا هي الغالبية التي لا تملك صوتًا أو قوة لمواجهة هذا الواقع.

من منظور آخر، قد يكون هذا "حكم الغاب" نتيجة لتراجع الوعي الجمعي أيضًا، فغياب القانون لا يأتي من السلطة وحدها، بل من تقاعس المجتمع عن المطالبة بحقوقه والتمسك بالقيم، لكن حتى لو كان المجتمع ضعيفًا، فإن دور الحاكم يبقى محوريًا في إعادة التوازن، بدون سلطة عادلة، تصبح الحياة صراعًا بدائيًا لا مكان فيه للإنسانية.

في النهاية، هذا الضجيج الداخلي الذي نشعر به هو صرخة ضد الفوضى وسيادة حكم الغاب، إنه تذكير بأن القانون ليس ترفًا، بل ضرورة تحمي المجتمع من الانهيار، بدون عدالة، لا أمن ولا استقرار، ويبقى السؤال: هل

سـنظل نعـيش في هـذه الغابـة، أم أن هنـاك أمـلًا في اسـتعادة النظام والإنسانية؟

حكم الغابة : الجرذ، الأسد، والنسر في سباق السلطة

في الغابة السوداء، حانت الانتخابات لاختيار ملك جديد، فاجتمعت الحيوانات وقررت ترشيح ثلاث فصائل: الأسد، النسر، والجرذ. انطلقت حملة انتخابية ضخمة، وتولى الثعلب قيادة حملة الجرذ بخبثه المعهود، خطب في الحيوانات داعيًا إياها لاختيار مرشحه، فاستوقفه الحمار متسائلاً: "كيف تدعم الجرذ وتترك الأسد والنسر؟" فأجاب الثعلب بابتسامة ماكرة: "إذا حكمت الأسود، ستحرس الغابة بقوتها، ولن تترك للحيوانات فرصة للحصول على طعامها إلا بالعمل الشاق، من لم يكد ليل نهار ويمتلك القوة سيجوع، والنسور، بقدرتها على التحليق والمراقبة، ستجعل السرقة مستحيلة، فمن لم يجد سيظل بلا طعام أو يموت جوعًا، أما الجرذ فهو ضعيف، قارض، يسرق الطعام، يثقب الأكياس، ينبش البذور، ويحفر الجذور، لا يطير، لا يراقب، ولا يحمي، إذا حكم، سنعيش دون تعب،

نأكل من الفتات، المحاصيل، والجذور التي يتركها، ونقتات من هنا وهناك بلا جهد".

هكذا، رسم الثعلب صورة مغرية: حكم الجرذ يناسب الضعفاء، بينما حكم الأسد والنسر يخدم الأقوياء فقط، فاستقبلت الحيوانات كلامه بحماس، صفقت الأحمرة، رقصت الإوزات، تزينت الفراشات، غردت الغربان، عزفت الصراصير، قفزت الضباء، وأقيم سرك من الفهود والنمور والأفيال، تسابقت الأحصنة والبغال في حلبات السباق، طبخت الخنازير الولائم، ورضخت الغابة لأفكار الثعلب، مقتنعة بمنطقه الماكر.

من زاوية أخرى، يمكننا أن نرى في هذه القصة انعكاسًا للواقع البشري، الثعلب يمثل السياسي الذكي الذي يعرف كيف يخاطب غرائز الجماهير، مركزًا على الراحة والمكاسب السهلة بدلاً من القيم أو المجهود، الأسد والنسر يرمزان إلى القوة والنظام، لكنهما يتطلبان جهدًا وانضباطًا لا يروقان للكسالى، أما الجرذ فهو رمز للضعف والفوضى التي قد تبدو جذابة لمن يبحثون عن العيش دون تعب، حتى لو كان ذلك على حساب الاستقرار والكرامة، اختيار الحيوانات

للجرذ ليس سوى دليل على ميلها للراحة الفورية، متجاهلة العواقب طويلة الأمد.

لكن هناك جانب آخر يستحق التأمل: هل كان الثعلب مخطئًا تمامًا؟ حكم الأسد أو النسر قد يضمن الأمن، لكنه قد يهمش الضعفاء فعلاً، بينما حكم الجرذ، رغم فوضويته، يمنح الجميع فرصة للبقاء، وإن كانت بطريقة مهينة، هذا التناقض يكشف عن صراع أزلي بين النظام والفوضى، بين العدالة التي تتطلب قوة والمساواة التي قد تؤدي إلى الانهيار، الحيوانات التي صفقت للثعلب لم تكن بالضرورة مخطئة في رغبتها بالعيش، لكنها ربما أغفلت أن الفوضى التي يعد بها الجرذ قد تدمر الغابة بأكملها.

من منظور رمزي، تعكس هذه الحملة الانتخابية طبيعة الديمقراطية عندما تتحول إلى لعبة شعبوية، الثعلب لم يقدم رؤية بناءة، بل استغل ضعف الحيوانات ورغبتها في الراحة، الحمار، بتساؤله، كان الوحيد الذي حاول التفكير، لكنه غلبته دهاء الثعلب وصخب الجماهير، النتيجة؟ غابة اختارت حاكمًا يعكس أسوأ غرائزها بدلاً من أفضل قيمها.

في النهاية، هذا الضجيج الداخلي هو تأمل في اختياراتنا، هل نسعى للقوة والنظام، حتى لو كان صعبًا، أم نرضى بالفوضى لأجل الراحة؟ الغابة السوداء ليست سوى مرآة لمجتمعاتنا، حيث الصخب قد يغلب العقل، والمكر قد ينتصر على الحكمة، السؤال يبقى: أي حاكم نختار، وأي غابة نريد أن نعيش فيها؟

المحور السابع:

الرؤية النقدية للواقع

ما بين الأبيض والأسود، رؤية رمادية للأحداث

يغلب على مجتمعاتنا اليوم منهج القراءة الصفرية للأشخاص والأحداث والمواقف، أو ما يمكن تسميته "الرؤية بالأبيض والأسود"، هذا النهج يحظى بشعبية كبيرة لسهولته وانسجامه مع ميل الإنسان الطبيعي نحو "الكسل" الفكري في تحليل المعلومات واستيعابها، لقد أصبح لدينا أجيال تواجه إشكالية حقيقية في فهم تعقيدات الأحداث والشخصيات، مما يحد من قدرتها على الاستفادة من التجارب السابقة واستخلاص العبر منها، الناس، بشكل عام، تفضل تصنيف الأمور إلى خير مطلق أو شر مطلق، وهذا التبسيط المفرط يشكل كارثة فكرية وعملية، لأنه يتجاهل الطبيعة المعقدة للحياة والتاريخ والعلاقات الإنسانية.

لا يمكن، على سبيل المثال، تناول شخصية تاريخية حكمت لقرون أو قادت شعوبًا لسنوات طويلة بمنظور أحادي الجانب، مثل هذه الشخصية اتخذت آلاف

القرارات، بعضها متناقض، وبعضها متأثر بظروف الزمان والمكان، إن الحكم المطلق عليها – بأنها كانت صالحة تمامًا أو فاسدة كليًا – يمنعنا من فهم الحقيقة الكاملة لما حدث ويحجب عنا الدروس المستفادة التي يمكن أن نطبقها اليوم، الواقع أن الشخصيات والأحداث تحمل في طياتها إيجابيات وسلبيات، ويجب أن ننظر إليها بمنظور "رمادي" يعكس هذا التنوع، فإذا كان هناك خير، يُرى بالأبيض، وإذا كان هناك شر، يُرى بالأسود، لكن الإصرار على حكم مطلق يظل خيارًا خاطئًا ومضللًا.

إن الأحداث التي تبدو بيضاء في لحظة معينة قد تتحول إلى سوداء في سياق آخر، والعكس صحيح، هذا التنوع يخلق مزيجًا رماديًا يعكس الواقع الحقيقي للشخصيات والتجارب، فالشخصية التي تحقق إنجازًا كبيرًا قد تُستحسن في ذلك الوقت، لكنها إذا أخطأت في قرار آخر، تواجه الاستياء والنقد، هذا التباين لا يعني أننا يجب أن نرفضها كليًا أو نتبناها دون تحفظ، بل أن نفهمها بشمولية، مع الأخذ في الاعتبار السياقات المختلفة التي أحاطت بها.

إن القدرة على تفكيك الأحداث وتحليلها من زوايا متعددة – داخلية وخارجية – تمنحنا فهمًا أعمق وأقرب إلى الحقيقة، عندما ننظر إلى الأسباب التي دفعت بحدث ما إلى الوقوع، والنتائج التي ترتبت عليه، نكتسب القدرة على إصدار أحكام أكثر دقة وموضوعية، هذا الفهم لا يساعدنا فقط على تجنب تكرار الأخطاء، بل يعزز قدرتنا على اتخاذ قرارات أفضل في الحاضر، فالنظرة أحادية الجانب، سواء كانت متفائلة بشكل مفرط أو متشائمة تمامًا، تحجب عنا الرؤية الشاملة وتعيق تقدمنا.

من المهم أيضًا أن ندرك أن هذا النهج الرمادي لا يعني التردد أو الضعف في الحكم، بل يعكس نضجًا فكريًا وقدرة على استيعاب التعقيدات، فالحياة ليست بسيطة كما نتمنى أحيانًا، والأحداث التاريخية أو الشخصيات العامة لا يمكن اختزالها في صناديق ضيقة، على سبيل المثال، قد نجد أن قرارًا معينًا اتخذته شخصية ما كان صائبًا من الناحية الاقتصادية لكنه أثر سلبًا على المجتمع، أو العكس، هذا التناقض يتطلب منا أن ننظر إلى الجوانب المتعددة: السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، وحتى النفسية، لنصل إلى تقييم عادل.

في النهايـة، النظـر مـن مختلـف الزوايـا لـيس ترفًـا فكريًـا، بـل ضـرورة لفهـم العـالم مـن حولنـا، إنـه السـبيل للوصـول إلى الحقيقـة، أو علـى الأقـل الاقتـراب منهـا قـدر الإمكـان، عنـدما نتبنى هـذا المـنهج، نتحـرر مـن قيـود التبسـيط المفـرط ونصـبح أكثر قـدرة على بنـاء مسـتقبل يسـتند إلى الـوعي والحكمـة، بـدلاً من الانجراف وراء الأحكام السريعة والسطحية.

آراء الأغلبية لا علاقة لها بالحقيقة

-بين الفكر الفردي والجماعي-

يعتقد الكثيرون أن إجماع الأغلبية على فكرة ما يجعلها صحيحة تلقائيًا، أو أن رفضها من الجماهير يعني بطلانها، لكن الحقيقة لا ترتبط بالكثرة، بل تقف مستقلة عن أهواء البشر ومعتقداتهم، التاريخ يشهد على ذلك: فقد آمنت البشرية جمعاء يومًا بأن الشمس تدور حول الأرض وأن الأرض هي مركز الكون، حتى جاء نيكولاس كوبرنيكوس، رجل واحد، ليهدم هذا الوهم بفكرة ثورية أثبتت لاحقًا أنها الحقيقة، هذا المثال ليس استثناءً، بل نمطًا متكررًا يظهر أن الحقيقة غالبًا ما تبدأ من الأقلية، أو حتى من فرد واحد يجرؤ على التفكير خارج إطار الجماعة.

في زمن الأنبياء، كانت الأغلبية ترفض رسالاتهم، متمسكة بجهلها وعبادة الأصنام، النار، الشمس، القمر، وحتى البشر، لم تقنعها الحجج، ولا البراهين، ولا حتى المعجزات الواضحة، القلة فقط هي من آمنت، ومع ذلك، لم يغير رفض الأكثرية من حقيقة تلك الرسالات، وفي

عصور التطور العلمي، وقفت الأغلبية ضد النظريات الجديدة، متشبثة بالعادات والتقاليد، بل وصل الأمر إلى تكفير علماء الرياضيات والفيزياء والفلسفة من قبل رجال الدين، لكن الحقائق العلمية ظلت صامدة، تنتظر من يثبتها بعيدًا عن ضجيج الرفض الجماعي.

حتى في أوقات الثورات، كانت الأغلبية تدعم السلطة، سواء كانت استعمارية أو استبدادية، تقتل أي محاولة للتحرر في مهدها، القلة القليلة هي من آمنت بأفكار التغيير في البداية، بينما انقلبت الأغلبية لاحقًا إلى جانب المنتصر بعد أن حسم الأمر، هذا السلوك يكشف عن طبيعة الفكر الجماعي: إنه يميل إلى الانحياز للقوة أو الراحة، لا للحقيقة، التاريخ يعلمنا أن من يكتشفون الحقائق غالبًا ما يكونون أفرادًا اعتمدوا على عقولهم، لا جماعات تقودها العواطف أو الخوف من التغيير.

من زاوية أخرى، يمكن أن نرى أن الفكر الجماعي قد يؤدي إلى نتائج كارثية، فهو ينتج أحيانًا أيديولوجيات متعصبة، وحماقات قومية، وفخرًا وطنيًا أجوف لا أساس له، كم من خرافة آمن بها الملايين، وظلت خرافة؟ وكم من حقيقة رفضها الجميع، ثم ثبتت لاحقًا؟ الشمس والقمر

موجـودان بغـض النظـر عـن إيماننـا بهمـا، والحقيقـة لا تحتـاج إلى تصـويت الأغلبيـة لتثبـت وجودهـا، هـذا التنـاقض بـين آراء الجمـاهير والواقـع يبـرز أهميـة التفكيـر الفـردي النقـدي، الـذي يعتمـد علـى الوقـائع لا علـى المشـاعر أو الضـغوط الاجتماعية.

لكـن هـذا لا يعني أن الأغلبيـة دائمًـا على خطـأ، بـل أنهـا ليسـت مقياسًـا للحقيقـة، ففـي بعـض الأحيـان، قـد تتفـق الجمـاهير على شيء صحيح، لكـن هـذا الاتفـاق لا يكـون دليلاً علـى صـحته، بـل مجـرد صـدفة، التحـدي يكمـن في قـدرة الإنسـان على التمييز بـين مـا هـو شـائع ومـا هـو حقيقي، وهـذا يتطلـب شـجاعة لمواجهـة التيـار، واسـتعدادًا للتفكيـر بعمـق بعيدًا عن الضجيج الجماعي.

إن أعظـم هديـة يمكـن للإنسـان أن يقـدمها لنفسـه هي أن يبني قناعاتـه على أسـس متينـة مـن الوقـائع، لا على مشـاعر عـابرة أو آراء الآخـرين، التـاريخ يثبـت أن الحقيقـة قـد تكـون مرفوضـة في البدايـة، لكنهـا تنتصـر في النهايـة، لأنهـا لا تعتمـد على عـدد المـؤمنين بهـا، بـل على قوتهـا الذاتيـة، هـذا الضـجيج الـداخلي الـذي يـدفعنا للتسـاؤل عـن آراء الأغلبيـة هـو مـا يمكـن

أن يقودنا إلى التحرر الفكري، واكتشاف الحقيقة بعيدًا عن صخب الجماهير.

لا شيء تغير

لم يتغير شيء في جوهره، ما زلت أجلس إلى طاولتي، أحمل قلمي أو أضع أصابعي على لوحة المفاتيح، أكتب روايتي، لكن العمل ليس سهلاً، بل هو صراع يومي، كأنني أحفر في صخرة بأظافري، أحيانًا يتقدم ببطء، كقطرة ماء تتساقط في وعاء لا يمتلئ، وأحيانًا يتوقف تمامًا، الإلهام ينضب كبئر جفت، فأتهاون قليلاً، أحاول أن أخرج شيئًا شائقًا، طريفًا، يوقظ الصفحات من سباتها، لكن في كثير من الأحيان، أفسد فكرة جيدة كانت تدور في خيالي، حتى وإن حرصت عليها أشد الحرص، كأن يدًا خفية تسحبها مني، تتركها مشوهة على الورق، بعيدة عن صورتها التي رأيتها في عقلي.

هناك لحظات أفكر فيها بالتخلي عن الرواية كلها. أتخيل أن أتركها جانبًا، وأكتب بدلاً منها قصة صغيرة، شيئًا فنيًا رشيقًا، خفيفًا كالريشة، خاليًا من أي نزعة مظلمة أو قاتمة، شيئًا يسلي الناس، يمتعهم، يجعلهم يبتسمون أو يصفقون بسرعة، قصة كهذه قد تمنحني التقدم السريع، الشهرة التي تأتي كالريح وتنتشر كالنار في الهشيم، أرى

نفسي أحيانًا أنجح في ذلك، أصبح اسمًا يتردد على الألسنة، لكن هذا الخيال لا يدوم طويلاً، هناك قوة خفية بداخلي، كسلسلة حديدية، تكبلني وتمنعني من الانجراف نحو هذا الطريق.

تلك القوة ليست مجرد عناد، بل هي صوت ذاتي، يأبى أن أخونها، الرواية التي أكتبها ليست مجرد كلمات أرتبها، بل هي مرآة تعكس عالمي الداخلي، تنبش مكنوناتي المدفونة، وتخرج من أعماقي ما لا أستطيع التعبير عنه بطريقة أخرى، إنها ليست مجرد عمل أدبي، بل هي أنا، بكل تعقيداتي وأحلامي وصراعاتي، أن أتركها من أجل شيء خفيف وسريع الانتشار سيكون كأن أبيع روحي مقابل تصفيق عابر، الشهرة السريعة مغرية، لكنها كالضوء الخافت الذي يتلألأ لحظة ثم يأفل بسرعة أكبر، تاركًا الظلام أكثر قتامة مما كان.

هذا الضجيج الداخلي بين الرغبة في الإبداع الحقيقي والإغراء بالنجاح السهل يشبه معركة صامتة، أحيانًا أشعر أنني أخسرها، عندما تتسرب الأفكار من بين أصابعي، أو عندما أنظر إلى الصفحات وأرى مدى بطء تقدمي، لكن تلك القوة الخفية تعيدني إلى رشدي، تذكرني أن الإبداع

ليس سباقًا، بل رحلة، الرواية التي أكتبها قد لا ترى النور بسرعة، وقد لا تُقرأ بصخب، لكنها تحمل بصمتي، وهذا ما يجعلها تستحق العناء.

في النهاية، أدرك أن الصعوبة جزء من العملية، الإلهام الذي ينضب، الأفكار التي تفسد، التردد الذي يعتريني، كلها اختبارات لمدى تمسكي بذاتي، أن أكتب شيئًا يسلي الجميع قد يكون سهلاً، لكن أن أكتب ما يعبر عني، ما يحمل ضجيجي الداخلي، هو التحدي الحقيقي، وتلك القوة التي تكبلني ليست قيدًا، بل هي الحرية الحقيقية، حرية أن أبقى أنا، حتى وإن كان الطريق طويلاً وشاقًا.

المحور الثامن:

التأمل في القيم

والسلوك البشري

" لمين يامال" والوفاء لمن أكرم

ضجيج داخلي يصرخ في رأسي، صورة اللاعب الإسباني لمين يامال ووالده تتراقص أمام عينيّ، وجه شاب صاعد، موهبة كروية لامعة، وخلفه قصة أبٍ عانى الأمرّين، لكن الضجيج لا يهدأ، فبعد اختياره اللعب لإسبانيا – البلد الذي وُلد فيه وترعرع وتعلّم فيه أبجديات كرة القدم – انهالت عليه سهام التنمر والهجوم الشرس، جماهير بلد والده الاصلي، وبعض أصحاب الشأن، لم يروا في قراره إلا "خيانة"، لكنني أتساءل، وسط هذا الضجيج: خيانة من؟ ووفاء لمن؟

تخيّلوا معي: أبٌ مشرّد في وطنه، لا يجد حتى أدنى حقوقه، لا مأوى، لا كرامة، لا أمل، قرّر أن يركب قوارب الموت، تلك السفن المهترئة التي تحمل أحلاماً هشة نحو المجهول، رسى به الحال في إسبانيا، بلدٍ لم يكن يعرفه، لكنه استقبله، عمل بجدّ، تحوّل من مهاجر تائه إلى مقيم يتمتع بحقوقه كاملة، تزوّج، أنجب ابنه لمين، وها هو الابن يحمل الجنسية الإسبانية، تلقّى أفضل تعليم، أحسن رعاية طبية، ومارس هوايته في ظروف مثالية، حتى صار

لاعباً محترفاً يبهر العالم، ثم جاء الاختيار: إسبانيا أم المغرب؟ اختار إسبانيا، فهل خان؟

الضجيج في رأسي يشتدّ، إسبانيا أكرمت الأب حين جار عليه وطنه الأم، احتضنت الأم، وربّت الابن حتى صار نجماً، أليس من العدل – بل من الوفاء – أن يمثّل لمين البلد الذي احتضن عائلته وصنع مستقبله؟ أم أن عليه أن يدفع ثمن "انتماء" لم يقدّم له شيئاً سوى ذكرى أبٍ مشرّد؟ في ميزان الوفاء، قرار لمين يامال صائب، بل هو شهادة حية على أن الوطن ليس مجرد تراب، بل عدل وتكافؤ فرص.

لكن الضجيج لا يتوقف هنا، قس على ذلك آلاف الكفاءات – أطباء، مهندسون، أساتذة – يغادرون أوطانهم لأنها لم تستثمر فيهم، دول تترك مواردها البشرية خاماً، تُصدّرها كبضاعة رخيصة، ثم تطالب باستيرادها كسلعة مصنّعة لاحقاً، أي منطق هذا؟ أي وطنية تُبنى على إهمال أبنائها ثم لومهم حين يختارون من أكرمهم؟ الوطن ليس شعارات تُرفع، بل مسؤولية تُحمل، عدل يُطبّق، وفرص تُتاح للجميع.

وسط هذا الضجيج، أرى لمين يامال رمزاً لقرار شجاع، لم يخن، بل ردّ الجميل لمن استحق، وفي صمته أمام التنمر، كمن يقول: "أنا وفيّ لمن أعطاني، لا لمن أهملني"، الدرس واضح: الوطن هو من يصنع أبناءه، وإذا تخلّى عنهم، فلا حق له أن يطالب بولائهم، الضجيج يهدأ الآن، لكن السؤال يبقى: متى ندرك أن الوفاء يكون للعدل، لا للعناوين الفارغة؟

الصمتُ وسط اللغط

ضجيج داخلي يضرب رأسي، أصوات متشابكة، لغطٌ لا يهدأ، أخذ ورد، جدالات تتصاعد كأمواج عاتية، كلمات تتراشق كالسهام، أشعر بيدٍ خفية تدفعني لأقحم نفسي وسط هذا العراك، لأصرخ، لأرد، لأثبت شيئاً، لكن الضجيج يتحول إلى صوت تحذير يرنّ في أذني: "توقف! لا تغرق!" أنظر حولي، أرى الناس يتجادلون في كل شيء ولا شيء، عقول مشتتة، قلوب محمومة، وأنا أتساءل: إلى أين يقودني هذا؟ إلى وجع رأس؟ إلى ضياع وقت؟ إلى نهاية لا طائل منها؟

الضجيج يزداد، أصوات تصرخ عن السياسة، عن الأجناس، عن القبائل، عن الألوان، كلٌّ يدافع عن هويته بعاطفة جيّاشة، بحميّة جاهلية تُعمي البصيرة، أشعر بالحرارة ترتفع في صدري، أريد أن أنصر لوني، جنسي، جذوري، لكن صوتاً داخلياً يقاطعني بحدّة: "كفى! ما هذا الجنون؟" أتوقف، أتنفس بعمق، أفكر، في آخر الزمان، حين تكثر الفتن وتتشابك الألسنة، هل أغرق مع الخائضين في مستنقع لا قرار له؟ أم أرفع رأسي وأبحث عن نور يهديني؟

الضجيج يتحول إلى همهمة، وأسمع صوت الفطرة يهمس: "تحرَّ ما يناسب دينك"، نعم، هذا هو الملاذ، أغمض عينيّ عن الزيف، أصمّ أذنيّ عن اللغو، ألتفت إلى ما يتماشى مع إيماني وفطرتي السليمة، لا حاجة لي أن أخوض في كل قضية، أن أرد على كل صوت، أن أثبت وجودي في جدال عقيم، الضجيج يحاول أن يجذبني مجدداً: "قل شيئاً! دافع! لا تسكت!" لكنني أرفض، أختار الصمت الواعي، أتبع ما يمليه ديني، لا عصبيتي أو هواي.

أتخيّل نفسي غداً، واقفاً أمام الحساب، كل كلمة قلتها، كل فكرة نصرتها، كل لحظة ضيّعتها في جدل لا يُغني، ستُسأل عنها، الضجيج يصرخ: "لكنك ستُتهم بالضعف!" أبتسم بثقة، لا يهمني، الضعف ليس في السكوت عن الباطل، بل في الانجرار وراءه، أرى الناس يتخبطون، يصرخون نصرة لقبائلهم، لألوانهم، لأهوائهم، وأنا أقول: "كفى، لن أكون جزءاً من هذا العبث"، ديني هو بوصلتي، فطرة الله التي فطرني عليها هي مرساي.

الضجيج يخفت تدريجياً، وأشعر براحة تغمرني، لست مضطراً لأكون صوتاً في كل معركة، بل صوتاً للحق حين يحين وقته، أتجنب العاطفية العمياء، أبتعد عن حميّة

الجاهليـة، أحفـظ لسـاني وروحي مـن التيـه، في زمـن اللغـط، الصـمت حكمـة، والتمسـك بالـدين قـوة، الضـجيج يتلاشـى الآن، وأنـا أسـير في طريقـي، مطمئنـاً أنني لـن أحاسـب إلا عمـا اخترته بعقل وإيمان، لا بعجرفة وهوى.

لا تفكر كثيراً، هكذا هم الناس

ضجيج داخلي يهزّ رأسي، صوت يتردد كالموجة: "لا تفكر كثيراً يا صديقي"، أحاول أن أهدئه، لكن الضجيج يصرّ، يرسم أمامي صورة الناس كما هم، بلا رتوش، أراهم بوضوح، كأنني في مسرح حياة صاخب. إن وقفت قوياً، شامخاً كالصخر، أحسست بخطواتهم خلفي، أنفاسهم تدفعني للأمام، يصطفون كالجنود، يهتفون، يرفعونني كعلم يزيّن سماءهم، الضجيج يصرخ: "انظر كيف يدعمونك!" لكنني أعرف، أشعر، أن هذا الدعم ليس لي، بل لقوتي.

ثم يتغير المشهد، والضجيج يتحول إلى همهمة ساخرة، إن جلست لحظة، إن أردت أن أرتاح، أن ألتقط أنفاسي، أجدهم فوق رأسي، يتسلقونني كأنني سلم، يجلسون على كتفيّ ليروا الطريق من علٍ، أشعر بثقلهم يعصرني، أسمع همهماتهم: "تحرك! لماذا توقفت؟" الضجيج يسألني: "ألم تتعب؟" أجيب بصمت: "بلى، لكنهم لا يبالون"، لا يرونني إنساناً، بل أداة، منصة يقفون عليها ليحققوا أحلامهم، وأنا أتساءل: أين هم حين أحتاج من يرفعني؟

الضجيج يصبح أعلى، صورة جديدة ترتسم، إن تعثرت، إن سقطت، إن أصابني الوهن لحظة، أرى أقدامهم تدهسني، يمرون فوقي كالريح، يدوسونني في التراب، يواصلون طريقهم وكأنني لم أكن، الضجيج يصرخ بمرارة: "لم يروك!" نعم، لم يروا سوى أنفسهم، كنت بالأمس قائدهم، واليوم ظلٌّ تحت أحذيتهم، أحاول أن أفهم، أن أبرر، لكن الضجيج يقاطعني: "لا تفكر كثيراً، هكذا هم أغلبية الناس"، أغمض عينيّ، أتنفس بعمق، أحاول أن أهدئ هذا العاصفة الداخلية.

أرى الحقيقة الآن، والضجيج يتحول إلى نصيحة: "تقبلها"، نعم، هكذا هم، يتبعون القوة، يستغلون الراحة، يتجاهلون الساقط، ليس في الأمر خيانة، بل طباع بشرية خام، الضجيج يهمس: "لا تعاتبهم، لكن لا تعتمد عليهم"، أبتسم بمرارة، أدرك أنني إن أردت الصمود، فعليّ أن أقف وحيداً أحياناً، لا أنتظر من يدفعني، لا أسمح لهم أن يجلسوا فوقي، وإن سقطت، أنهض بنفسي قبل أن تطأني الأقدام.

الضجيج يخفت تدريجياً، وأنا أقرر: سأكون قوياً لأجلي، سأجلس حين أحتاج دون أن أدعوهم ليصعدوا، وإن

تعثرت، سأحمي نفسي من دَوسهم، لا تفكير كثيراً بعد الآن، أعرفهم، أتقبلهم كما هم، لكنني لن أعيش لأرضيهم، الضجيج يتلاشى، وأنا أسير، أحمل قوتي في قلبي، لا أبحث عن صفوف خلفي، ولا أخشى أقداماً فوقي، هكذا هم الناس، وهكذا سأكون أنا، صلباً بما يكفي لأعيش بينهم دون أن أنكسر.

الأنثى وميزان القيمة في عجالة الحياة

ضجيج داخلي يدوّي في رأسي، وسط عجلة الزمن المتسارعة، أفكار تتصارع، أصوات تتردد، الأنثى، كأنها موجّهة أوتوماتيكياً نحو الذكر الأعلى قيمة، الضجيج يصرخ: "لماذا؟" أحاول أن أفهم، أتأمل، ليست القضية في التوجه نفسه، بل في القيمة التي تُحرّك هذا التوجه، أرى الاختلاف يتشكل أمامي كمشهد حي، كل أنثى تحمل ميزاناً داخلياً، تقيس، تختار، لكن الضجيج يسألني: "ما هي القيمة؟"

أغمض عينيّ، أسمع صوتاً يهمس: "السلطة"، نعم، بعضهن يرين القيمة في التاج، في العرش، في الرجل الذي يملك النفوذ، الضجيج يحملني إلى تلك الصورة: أنثى تبحث في عيون الرجل عن ظلال القوة، عن يدٍ تسيطر، عن صوت يأمر، السلطة بالنسبة لها هي الجائزة، فتسعى إلى من يرفعها إلى قمة الهرم، لكن الضجيج يتحول إلى همهمة: "وهناك غيرها"، أفتح عينيّ، أرى المشهد يتغير.

"المال"، يصرخ الضجيج بقوة، أغلبيتهن، كما يبدو، يقسن القيمة بالعملات، بالذهب، بالحسابات الممتلئة،

أتخيّلها تقف أمام الرجل، لا تهمها مصادر ثروته، حلالاً كانت أم حراماً، طالما أن جيوبه عميقة ويديه ممدودة بالعطايا، الضجيج يسخر: "الأكثر ثراءً يفوز!" أشعر بمرارة، أتساءل: هل تحول الزواج إلى صفقة؟ لكن الضجيج لا ينتظر إجابتي، يمضي إلى صوت آخر، أخف، أندر.

"الدين"، يهمس الضجيج بهدوء، قلة نادرة جداً، كالجواهر المخفية، ترى القيمة في الورع، في التقوى، في الرجل الذي يضيء طريقها إلى الله، أرى تلك الأنثى في خيالي، عيناها تبحثان عن قلب سليم، عن روح تتقي، لا عن جاه أو مال، الضجيج يتوقف لحظة، كأنه يحترم هذه القلة، لكنه يعود ليصرخ: "لكنهن استثناء"!

أفكر وسط هذا الضجيج، أرى الزواج كمشروع استثماري في عين الأنثى، الرجال أمامها كأوراق دراسة جدوى، تقلّبها، تقارنها، تحسب الأرباح والخسائر، الضجيج يسألني: "وهل هذا عيب؟" أتردد، أجيب بصمت: "لا، لكنه واقع"، كل واحدة تبحث عن القيمة المضافة لها، تختار صاحب الميزان الأثقل في عالمها، السلطة، المال، الدين، كلها موازين مختلفة، لكن الهدف واحد: الأعلى قيمة يفوز.

الضجيج يخفت الآن، وأنا أتأمل، الأنثى ليست آلة بلا قلب، لكنها عملية بطبيعتها، تبحث عن الأمان، عن المستقبل، حسب ما تراه قيمة، الضجيج يهمس أخيراً: "تقبلها كما هي"، أبتسم، أدرك أن الاختلاف ليس في التوجه، بل في المقاييس، في عجالة الحياة، كل أنثى تسعى لما يملأ فراغها، والرجل الأعلى قيمة هو من يحقق حلمها، أياً كان لون ذلك الحلم، الضجيج يتلاشى، وأنا أرى الحقيقة: القيمة تحكم، والقلب يتبع.

لا تُهلك نفسك في عجالة العطاء

ضجيج داخلي يضرب رأسي، وسط عجلة الحياة المتسارعة، أصوات تتصارع، أفكار تتدافع، "لا تستهلك نفسك!" يصرخ صوتٌ داخلي، كأنه يحذرني من هاوية أقترب منها، أتوقف، أنظر حولي، أرى نفسي أعطي، أبذل، أفرّغ قلبي في أماكن لا تليق بي، أمام أناس لا يرون قيمتي، الضجيج يسألني: "لماذا؟" أحاول أن أجد إجابة، لكنني أشعر بالإرهاق يعصرني، كأنني أركض في طريق لا نهاية له.

الضجيج يتحول إلى نصيحة: "لا تعطِ من نفسك لمن لا يستحقك"، أغمض عينيّ، أتأمل، نعم، هناك حد أدنى أمنحه للجميع، حبّاً وكرامة، كما يليق بإنسانيتي، لكن العطاء الخاص، ذلك الجزء العميق من روحي، ليس لكل من مرّ بي، الضجيج يصرخ: "احتفظ به!" أرى أهل الخاصة في خيالي، أولئك الذين أثبتوا بمواقفهم أنهم مخلصون، محبون، يستحقون أن أفتح لهم قلبي، لكن الضجيج يعود: "والباقون؟" أجيب بصمت: "حد أدنى، لا أكثر."

أشعر بخيبة ترتسم في صدري، الضجيج يهمس: "الخذلان"، نعم، أعرفه جيداً، طعمه مرّ، لكنه ليس غريباً،

أتساءل: هل هو خطأ أن أشعر به؟ الضجيج يجيب: "لا بأس"، أتنفس بعمق، أدرك أن الخذلان مدرسة، نتعلم منه، نعيد ترتيب حياتنا، نوازن بين من نعطيهم ومن نحجب عنهم، لكن الضجيج يتحول إلى تحذير: "احذر الخذلان المستمر!" أتوقف، أفكر، إن تكرر، إن أصبح ظلاً يتبعني، فهذا ليس مجرد درس، بل إشارة، الضجيج يصرخ: "استراتيجيتك خاطئة"!

أنظر إلى نفسي في مرآة الضجيج، أرى عيوبي، ربما أعطي كثيراً لمن لا يستحق، ربما أضع نفسي في أماكن أقل من مستواي، أسكب قلبي في تربة جرداء لا تنبت، الضجيج يسألني: "لماذا لا تراجع نفسك؟" أشعر بالحيرة، لكن الحقيقة تتضح: الخذلان المستمر ليس ذنبهم وحدهم، بل اختياري أنا، أنا من يحتاج أن يعيد الحسابات، أن يرسم حدوداً، أن يحفظ نفسه لمن يقدرها.

الضجيج يخفت الآن، وأنا أقرر، لن أستهلك نفسي بعد الآن في متاهات لا تناسبني، لن أوزع عطائي كالمطر على أرضٍ لا تعرف الامتنان، سأحتفظ بخاصتي لأهل الخاصة، أولئك الذين يرونني بعين القلب، لا بعين المصلحة، الخذلان؟ سأتعلّم منه، لكن لن أدعه يصبح عادة،

الضجيج يتلاشى، وأنا أسير في عجالتي، أحمل كرامتي كدرع، أوزّع حبي بحكمة، أراجع نفسي كلما لزم الأمر، في النهاية، أنا من يستحق أن أحافظ عليه، والضجيج يهدأ، تاركاً لي سلاماً أصنعه بنفسي.

فوضى الآراء ونجاة الصامت

ضجيج داخلي يصمّ أذنيّ، أصوات متداخلة تتسابق في رأسي، الكلّ يفتي، الكلّ ينتقد، الكلّ يرمي بدلوه في بحر لا قرار له، أنظر حولي، أرى الناس يتكلمون في كل شيء، يحكمون على كل أمر، يقيسون الأمور بمقاييس أهوائهم وعواطفهم، ما يوافق نزواتهم محمود، وما يخالفها منبوذ مرفوض، الضجيج يشتدّ، أحاول أن أفهم: أين الحق وسط هذا الزحام؟ الحابل اختلط بالنابل، والعقول تاهت في متاهة اللغط، أشعر بثقل يعصر قلبي، أين النجاة؟

وسط هذا الضجيج، أسمع همهمة الفتن تتصاعد، كلٌّ يرفع صوته، يبدي رأيه كأنه الحكم الفصل، ينتقد كأنه القاضي الأعلى، أرى ألسنة تتحرك بعنف، عيوناً تلمع بالعصبية، قلوباً تغلي بالهوى، الضجيج يصرخ في رأسي: "قل شيئاً! انتقد! افتِ!" لكنني أتوقف، أتنفس بعمق، أفكر، هل أغرق معهم في هذا المستنقع؟ هل أضيع في فوضى لا تنتهي؟ أم أن النجاة في الابتعاد، في العزلة عن هذا اللغو، في النأي بنفسي عما لا يعنيني؟

الضجيج يتحول إلى أنين، صوت داخلي يهمس: "اهتم بنفسك"، نعم، هذا هو الطريق، أغمض عينيّ عن الزيف، أصمّ أذنيّ عن الجدل العقيم، أركز على إصلاح ذاتي، أتساءل: ماذا سأقدّم يوم ألقى الله؟ قلباً سليماً أم كومة من الكلمات الفارغة؟ الضجيج يحاول أن يعيدني: "لكنك ستُنسى، ستُتهم بالجبن!" أبتسم بثقة، لا يهمني، الزاد قليل، والطريق طويل، والغربة تشتدّ يوماً بعد يوم، لماذا أُفلس نفسي في معارك لا تغني، بينما الفتن تزداد كالجبال حولي؟

أتخيّل نفسي في تلك اللحظة، يوم الحساب، كل فتوى أطلقتها، كل نقد رمتُه، كل رأي دافعتُ عنه بدافع الهوى، سأُسأل عنه، الضجيج يصرخ: "لكن الناس يحتاجون صوتك!" أردّ بهدوء: "لا، الناس يحتاجون الحق، وأنا أحتاج السلام". أختار أن أحتفظ بزادي القليل، أجمعه بعناية، أحميه من التشتت، الطريق إلى الله ليس في اللغط، بل في تقويم النفس، في قلب سليم لا يشوبه الضغينة أو الهوى.

الضجيج يخفت تدريجياً، وأشعر بخفّة تنساب في روحي، لست مضطراً لأكون جزءاً من هذه الفوضى، لست ملزماً بأن أرد على كل صوت، أو أن أفتي في كل أمر، أختار العزلة الواعية، أراقب نفسي، أصلح عيوبي، أستعد ليومي

الموعـود، الفـتن كـالريح العاتيـة، لكـن مـن نـأى بنفسـه عنهـا، وتمسـك بإيمانـه، هـو المنجـى، الضـجيج يتلاشـى الآن، وأنـا أسـير فـي صـمتي، مطمئنـاً أن زادي القليـل مـع قلـب سـليم سيكفيانني حين أقف أمام ربي.

المحور التاسع:

التحديات الاجتماعية

والذاتية

السفينة التائهة في أعماق المجهول

ضجيج داخلي يدوّي في رأسي، صورة سفينة تائهة تتراقص أمام عينيّ، قادة السفينة، بكل عنادهم، أوصلوها إلى عمق المحيط، حيث الظلام يبتلع كل شيء، أسمع أصوات الموج يصرخ، والريح تعوي، والسفينة تئن تحت وطأة قرارات خاطئة، الربان، بعينيه المغلقتين عن الحقيقة، يتعنت، يسير في طريق ملتوٍ نكاية في من حوله، كأن الانتصار في عناده أغلى من سلامة الجميع، ضجيج المحيط يشتد، وأنا أتساءل: إلى أين يأخذنا هذا الجنون؟

في خضم هذا الضجيج، أرى الربان يقحم نفسه في ملاحقة زوارق مجهولة لا تعنيه، شبحاً يطارده دون هدف، يتبع خططاً غير مدروسة، كخرائط ممزقة لا تقود إلا إلى الضياع، وجهته مبهمة، طريق يعجّ بأعتى أنواع الحيتان، أسماك القرش تتربص، والأمواج المتلاطمة ترتفع كجبال تهدد بالسحق، السفينة، مهما كانت صلبة، تتأرجح، تتشقق، تصارع لتبقى طافية، لكن الضجيج في رأسي يصرخ: نهايتها الغرق، لا مفرّ!

أحاول أن أفهم، وسط هذا العصف الداخلي، لماذا يختار الربان هذا المسار؟ أهو العناد الأعمى؟ أم رغبة في إثبات شيء لمن حوله، حتى لو كان الثمن الدمار؟ أسمع أصوات الطاقم في خيالي، يصرخون، يتوسلون لتغيير المسار، لكن الربان لا يبالي، يواصل السير نحو المجهول، كأن المحيط بكل أهواله هو المجد الذي ينشده، لكن أي مجد في سفينة محطمة؟ أي نصر في غرق لا يبقي ولا يذر؟

الضجيج يتحول إلى أنين، صوت السفينة وهي تتفكك قطعة قطعة، أرى الماء يتسرب، الألواح تنهار، والأشرعة تتمزق تحت ضربات الأمواج، كل خطوة خاطئة من الربان كانت طعنة في جسدها، كل قرار متسرع كان مسماراً في نعشها، مهما صمدت، مهما تشبثت بالحياة، فإن المحيط لا يرحم، والعناد لا ينقذ، النهاية واضحة، كحقيقة لا تقبل الجدل: الغرق مصيرها، والضياع جزاء قائدها.

لكن الضجيج لا يتوقف عند السفينة، إنه يمتد إلى كل ربان في حياتنا، كل قائد يسير بعناده نحو الهاوية، يجرّ من خلفه أرواحاً بريئة، إنه صوت تحذير يدوّي: العناد ليس قوة، والمجهول ليس مغامرة إن لم تكن تعرف وجهتك، السفينة ليست مجرد خشب وأشرعة، بل رمز لكل ما

نحملـه مـن أمـل، إذا أخطـأ الربـان، فـالثمن لـيس حياتـه وحده، بل حياة الجميع.

الضـجيج يهـدأ الآن، لكـن الصـورة تبقـى: سـفينة تغـرق، وربـان ينظـر إلى الهاويـة بعينـين فـارغتين، درس قـاسٍ يتردد في أعمـاقي: مـن يتعنـت ويختـار المجهـول نكايـة في الحـق، لا ينتظـره سوى الغرق، فهل نسمع الضجيج قبل فوات الأوان؟

العيش في غابة البقاء

ضجيج داخلي يهزّ أعماقي، صوت يصرخ في رأسي وأنا أتخيّل نفسي وسط غابة بشرية تسودها قوانين الوحوش، مجتمع لا يعرف إلا سياسة الغاب، حيث القوي يفترس والضعيف يُسحق، أنظر حولي، لا قوة جسدية تملأ عضلي، لا مال يدعمني، لا جيش من البشر يقف خلفي، الضجيج يزداد: كيف أدافع عن مبادئي؟ كيف أقاوم جبروت المسيطرين؟ أصوات الواقع تصفعني: إن لم تكن ذئباً، ستأكلك الذئاب، لكنني أرفض أن أكون فريسة، فماذا أفعل؟

وسط هذا الضجيج، يتردد صوت العقل: "تسيّس، اعمل في السر، ارتدِ قناعاً يخفي ما تبطن"، أشعر بالتناقض يعصف بي، أظهر عكس ما أؤمن به؟ أبتسم في وجوههم بينما قلبي يشتعل غضباً؟ نعم، لأن المواجهة العارية في مثل هذا الوحل ليست بطولة، بل انتحار، إن لم أحفظ نفسي من شرّهم، سيهدرون كرامتي، سيمحون ماء وجهي، سيدوسون كبريائي، الضجيج يتحول إلى همسة حذرة: "الضعف ليس خياراً، لكن العجلة موت."

أتخيّل نفسي ضعيفاً هزيلاً، وحيداً، أفتح صدري للجميع، أحمل راية المبادئ وأصرخ في وجه الظلم، لكن الضجيج يقاطعني بسخرية: "غباء! هذا ليس شجاعة، بل اجترار للهلاك"، أرى الصورة بوضوح: ضربات متتالية، سخرية، إذلال، تدمير تدريجي بكل الوسائل، لا أحد يرحم الضعيف هنا، لا أحد يصغي لصوت بلا قوة ن الغابة لا تعرف الشفقة، والمسيطرون لا يرون إلا من يملك مخالب، فكيف أقاوم؟ كيف أحمي ما أؤمن به؟

الضجيج يهدأ قليلاً، ويبرز صوت آخر، صوت الحكمة: "ابنِ نفسك أولاً"، نعم، الصدق مع النفس هو الأساس، أن أعرف من أنا وماذا أريد، ثم القوة، ليست عضلية فقط، بل قوة العقل والإرادة، أعززها بالعلم والمهارة، وثالثاً، أحيط نفسي بالمؤيدين، أبني جبهة من الأرواح التي تشاركني الحلم، الضجيج يتحول إلى دقات منتظمة، كخطة ترسم طريقاً: صدق، قوة، دعم، وحينها فقط، أستطيع أن أرفع رأسي، أن أجاري الوحوش، أن أدافع عن مبادئي وأحمي المظلومين دون أن أكون فريسة.

لكن الضجيج يعود للحظة: "وهل سينتظرونك؟" أبتسم بمرارة، لا، لن ينتظروني، لكنهم لن يستطيعوا إيقافي

إذا بنيت نفسي بحكمة، في غابة البقاء، الضعيف يُهزم، لكن الذكي يصمد، السرية ليست نفاقاً، بل درعاً مؤقتاً حتى أصبح جاهزاً، الضجيج يخفت الآن، وأنا أرى الطريق: لست مضطراً للغرق في المواجهة العمياء، بل للصعود خطوة خطوة، المبادئ لا تموت إن حفظتها في قلبك، وحين تقوى، سيكون صوتها أعلى من أنياب الغابة.

ذكريات الصبر وفوضى اليوم

ضجيج داخلي يعصف برأسي، ذكريات قديمة تتراقص أمام عينيّ، أتذكر جيداً أياماً كانت أقسى مما نعيشه اليوم، في الثمانينات، كانت المدن غارقة في العتمة، لا غاز مدينة يدفئ البيوت، طوابير تمتد أياماً لأجل قارورة غاز في شتاء قارس، الضجيج يحملني إلى تلك الشوارع، أرى الناس ينتظرون، أسمع همهمات البرد والتعب، الاستيراد كان حكراً على الدولة، الملابس موحدة، قماش محلي خشن يغطي الجميع، أحياء كاملة تعتمد على بيت أو اثنين للماء البارد صيفاً، وسيارة واحدة تحمل المرضى والمسافرين في الحي، الضجيج يزداد، أتذكر الأزمات، عالمية ومحلية، حيث اختفت الزيت والدقيق والسكر، وازدحمت الأسواق، وامتدت الطوابير كأفاعٍ لا تنتهي.

أرى الطرقات في خيالي، محفرة، حصى وطبقة زفت هشة تتفتت تحت الأقدام، الضجيج يأخذني إلى التسعينات، ثم بداية الألفية، أزمات تتكرر كالنغمة نفسها في لحن قديم، لكن وسط هذا الضجيج، صوت يهمس: "كنا نصبر"، نعم، كنا نصبر، لم نسمع تذمراً يملأ السماء، لم نرَ

تحريضاً يشعل النار، لم نشهد تخويناً يمزق القلوب، كنا نعيش القليل بقلوب راضية، نتحمل بصمت، ننتظر بأمل، لكن الضجيج يتحول الآن إلى صرخة: "فما الذي تغير؟"

أنظر إلى اليوم، والضجيج يصبح أصواتاً متشابكة، كلمات تتطاير من وسائل التواصل الاجتماعي، كل من هبّ ودبّ صار له صوت، كل يد تملك هاتفاً أصبحت تكتب، تنتقد، تحرض، الضجيج يصرخ: "انظر كيف امتلأت القلوب غلاً وحقداً!" أرى السلبية تنتشر كالوباء، الكراهية تتسلل كالدخان، روح الانتقام تسود بين الناس، ما كان يُحتمل بالأمس بصبر، أصبح اليوم مادة للغط والقيل والقال، الضجيج يسألني: "هل زادت وسائل التواصل من الطين بلة؟" أجيب بمرارة: "نعم، أشعلت فتيل فوضى لم نعهدها."

أتذكر تلك الأيام القاسية، وأقارنها بالتذمر الحالي، كنا نعيش بلا رفاهية، لكن بلا ضغينة، اليوم، مع كل تقدم، تزداد الشكوى، يعلو الصراخ، تتكاثر الاتهامات، الضجيج يتحول إلى أنين: "لماذا لم نعد نصبر؟" أفكر في الإجابة، أرى أن الفارق ليس في الأوضاع، بل في القلوب، وسائل التواصل جعلت كل صوت مسموعاً، لكنها أغرقتنا في بحر من

السلبية، الضجيج يخفت الآن، وأنا أتساءل: ألم يحن الوقت لنعود إلى الصمت الراضي، إلى تقبل القليل بسلام، بدلاً من أن نغرق في لغط يمزقنا؟ ذكريات الصبر تعلمني أن الحياة ليست في كثرة الكلام، بل في سكينة النفس، الضجيج يتلاشى، وأنا أختار أن أتذكر، لا أن أتذمر.

الأدب، صوت القلب وسط عجالة الحياة

ضجيج داخلي يرنّ في رأسي، وسط عجلة الحياة التي لا تهدأ، أصوات متداخلة، خطوات متسارعة، لكن وسط هذا الزحام، يبرز صوت رقيق يهمس: "الأدب"، أغمض عينيّ، أحاول أن أسمعه بوضوح، الأدب هو لغة القلب والعقل، كلمات تتنفس، أحلام تتشكل، تجارب تُخلّد، الضجيج يتحول إلى إيقاع، كأنني أسمع دقات قلب الإنسان عبر العصور، تنبض في حروف وأبيات وسطور، أتساءل: كيف يصمد هذا الصوت وسط ضوضاء العجالة؟

الضجيج يأخذني إلى الأدب العربي، أسمع صوت المتنبي يتردد كالرعد: *"على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم"، أشعر بالقوة تسري فيّ، كأن الكلمات سيوف تشق الظلام، الحكمة تتراقص في أبياته، ترفعني، تدفعني لأنظر إلى نفسي: هل أملك عزماً يستحق عزائم؟ الضجيج يصرخ: "فكر!" لكنني أهدئه، أتأمل، الأدب لا يسأل فقط، بل يجيب، يرسم طريقاً للروح، يعلمني أن القوة ليست في العضل، بل في الإرادة التي تصوغ المكارم.

ثم ينتقل الضجيج عبر الحدود، أسمع شكسبير يهمس بلغة الأحلام: "نحن مصنوعون من ذات المادة التي تصنع منها الأحلام"، أتوقف، أشعر برعشة، الضجيج يتحول إلى نسيم يحملني إلى عالم آخر، حيث الكلمات ليست مجرد حبر، بل أرواح تتنفس، أرى نفسي في مرآة الأدب، أحلامي هشة كالرؤى، لكنها قوية بما تحمله من أمل، الضجيج يسألني: "من أنت؟" أجيب بصمت: "أنا حلمٌ صاغه الأدب."

الضجيج يصبح أعمق، أفكر في الأدب كشاهدٍ على الإنسان، هو من يحمل همومنا، يعانق أفراحنا، يربط خيوط الماضي بالحاضر، أتخيّل أجيالاً تروي قصصها، أسمع بكاءها وضحكاتها في السطور، الأدب ليس ترفاً، بل مرآة وجسر، يصنع مستقبلاً لا ينسى الحكمة ولا يفقد الجمال، الضجيج يصرخ: "لكن العجالة تقتل الأدب!" أردّ بهدوء: "لا، الأدب يصمد، يتسلل بين اللحظات، يعيش في قلب من يفهمه."

أرى اليوم، الناس يركضون، يغرقون في السرعة، لكن الضجيج يهمس: "توقف، اقرأ"، الأدب هو ملاذي، يعانقني حين أضيع، يذكرني أنني لست وحيداً في أحزاني أو أحلامي، الضجيج يخفت الآن، وأنا أحمل كتاباً، أتنفس كلماته،

المتنبي يعلمني العزة، شكسبير يوقظ خيالي، وأنا أجد نفسي فيهما، في عجالة الحياة، الأدب هو صوتي الداخلي، يهدئني، يرفعني، يصوغني من جديد، الضجيج يتلاشى، وأنا أدرك: مهما طال الطريق، الأدب سيبقى، لغة قلبي وعقلي، شاهداً على روحي التي لن تموت.

المحور العاشر:

التجربة الشخصية

واليومية

كوب الشاي خاصتي

على غير العادة، لم أجد نفسي أنتمي إلى تلك الجماعة العريقة من الكتاب والشعراء والفنانين الذين جعلوا من القهوة عشيقتهم الأبدية، كتبوا عنها، نظموا فيها الأشعار، وجعلوها رمزًا لليقظة والإلهام، كانت القهوة بالنسبة لهم كالوقود الذي يشعل محركات الفكر، يدفعها عبر ليالٍ طوال من التأمل والكتابة، أما أنا، فأشذ عن هذه القاعدة، وأجد في كوب الشاي الأخضر ملاذي الخاص، ذلك السائل الدافئ الذي يحرك مشاعري ويوقظ فيّ إلهامًا دفينًا، كأنه مفتاح يفتح أبوابًا صدئة في أعماق الروح.

في آخر الليل، حين يعشش الهدوء في الزوايا المجهولة، وتسكن الضوضاء الخارجية، أجلس مع كوبي الأخضر، ليس مجرد مشروب، بل طقس يعانق السكينة، رائحته العشبية تنساب إلى حواسي، كأنها نسمة تحمل ذكرى غابات بعيدة، وطعمه اللطيف يربت على أعصابي المرهقة، في تلك اللحظات، أشعر أن الشاي يحملني إلى عالم آخر، حيث أخلو بنفسي، وأستخرج منها كنوزًا دفنتها الأيام تحت أنقاض الزمن، مكنونات نفسية تحجرت كالصخور، كانت

مطمورة تحت طبقات من الهموم والروتين، تتحرر الآن، كأنها أحفورات تعود إلى الحياة بفعل دفء الكوب بين يديّ.

القهوة، بمرارتها وحماستها، قد تكون صديقة الأرواح الصاخبة، تلك التي تبحث عن اليقظة العنيفة والإلهام المشتعل، لكن الشاي الأخضر، بسلاسة مذاقه وهدوئه العميق، يناسب طباعًا مثلي، تبحث عن الإبداع في السكون، لا في العاصفة، إنه لا يصرخ في وجه النعاس كما تفعل القهوة، بل يهمس إليه بلطف، يوقظه برفق كأم تربت على كتف طفلها، في هذا الهدوء، أجد مساحة للتأمل، للغوص في أعماقي، لاستخراج الأفكار التي كانت حبيسة زنازين النسيان.

كثيرًا ما تساءلت: لماذا يمجد الكتاب القهوة، بينما أجد في الشاي مرآة تعكس ذاتي؟ ربما لأن الشاي يحمل طابعًا تأمليًا، يشبه الخلوة الصوفية، بينما القهوة تحمل طاقة المدن المزدحمة والليالي المضطربة، في كل رشفة من شايي، أشعر أنني أحفر في منجم ذكرياتي، أستخرج منه جواهر منسية: لحظات طفولة تلاشت، أحلام شباب تبعثرت، وأحاسيس كنت أظنها ماتت تحت وطأة الحياة، الشاي لا يمنحني اليقظة فقط، بل يمنحني القدرة على مواجهة

نفسي، على سماع ذلك الضجيج الداخلي الذي كنت أتجاهله.

في آخر الليل، حين يغفو العالم، يصبح الكوب بين يديّ بمثابة مرشد روحي، يساعدني على كسر قشور الصمت الخارجي، لأسمع صوتًا أعمق، صوتًا كان مدفونًا تحت الثرى، إنه ليس مجرد إلهام للكتابة أو الشعر، بل إعادة اكتشاف للذات، كل فكرة تخرج من هذا السكون هي كنز استخرجته من أعماقي، كل كلمة تُكتب هي حجر كريم صقلته رشفات الشاي، وفي هذا الضجيج الداخلي الخاص بي، أجد سلامًا غريبًا، سلامًا لا تقدمه القهوة بصخبها، بل يمنحه الشاي بهدوئه.

ربما أكون شاذًا عن قاعدة الأدباء، لكن في هذا الشذوذ أجد نفسي، الشاي الأخضر ليس مجرد مشروب، بل رفيق يشاركني لحظات الخلوة، يحيي ما كان ميتًا فيّ، ويمنحني القدرة على التحليق في سماء أفكاري، وعندما أضع الكوب جانبًا، أدرك أن الإبداع ليس دائمًا في الصخب، بل قد يكون في همسة هادئة، تنبعث من كوب يعانق السكينة.

مركز الجاذبية :

رحلة السعادة من الخارج إلى الداخل

في بحثه العميق عن مصدر سعادة الإنسان، يقدم الفيلسوف العبقري آرثر شوبنهاور رؤية متكاملة، يرسم فيها حدودًا بين ثلاثة أنواع من البشر: العامي، المتوسط، والنابغة، كل نوع يبحث عن سعادته بطريقته، لكن مصادرها تختلف، كما تختلف مراكز جاذبيتهم، فتتحدد بها طباعهم ومصائرهم.

الشخص العامي، ذلك الذي يعيش على سطح الحياة، يجد سعادته في الخارج، يلهث وراء المتع والشهوات، يطارد الثروة، المكانة، العائلة، الأصدقاء، والمجتمع، هذه الأشياء، بكل بريقها، تشكل أعمدة سعادته، لكنها أعمدة هشة، ما إن تهتز بفعل خسارة، أو تنهار تحت وطأة خيبة، حتى يجد نفسه في هاوية اليأس، مركز جاذبيته خارج ذاته، فهو كالكوكب الذي يدور حول شمس غير مستقرة، إذا ابتسم له الحظ، يهرع لاقتناء القصور الفاخرة، الخيول الأصيلة، أو إقامة الحفلات الباذخة، ليس للاستمتاع بها بقدر ما

للتباهي أمام الآخرين، يشبه المريض المنهك الذي يبحث عن الشفاء في العقاقير، غافلاً أن مصدر القوة الحقيقي يكمن في داخله، لا في مظاهر العالم الخارجي.

ثم يأتي الشخص المتوسط، ذو المؤهلات العقلية التي لا تتجاوز الحد الأدنى الكافي، عندما تنضب مصادر متعه الخارجية، أو تعجز عن إشباعه، يلتفت إلى بدائل أكثر عمقًا، قد يهتم بفن من الفنون، أو يدرس علم النبات، الفلك، أو التاريخ، بحثًا عن تسلية أو معنى، مركز جاذبيته يقع جزئيًا داخله، لكنه لا يصل إلى الإبداع الحقيقي، هواياته تظل سطحية نسبيًا، دراسته تقتصر على الروابط بين الظواهر، دون أن تغوص في كينونة الإنسان أو تتجاوز إلى فهم وجودي شامل. إنه خطوة فوق العامي، لكنه ليس النابغة.

أما النابغة، العبقري، الألمعي، فهو نقيضهما، مركز جاذبيته يقع كليًا في داخله، في أفكاره، خواطره، وذاته، لا يبحث عن السعادة في العالم الخارجي، بل يراها في انشغاله الدائم بكيانه، العزلة بالنسبة له ليست عقابًا، بل ملاذ يحتضنه، والفراغ ليس فراغًا، بل كنز يتيح له التأمل والإبداع، ما يراه الآخرون ضرورات – الأصدقاء، العائلة،

المظاهر – يراه عالة يستغني عنها بسهولة، إذا جاءته الثروة أو الشهرة، يتعامل معها كضيف ثقيل، يسعى للتخلص منه سريعًا، سعادته تكمن في حريته ليكون ذاته، في قدرته على صياغة تصورات أصيلة في الفن، الشعر، أو الفلسفة، تعبر عن ماهية الأشياء بعمق.

النابغة، بهذا المعنى، هو الأسعد بين البشر، لأن غناه الداخلي يفوق كل ما يمكن أن يقدمه العالم، لا يطلب من الخارج سوى أن يتركه وشأنه، يمنحه وقتًا ليصقل مواهبه ويحقق مشاريعه الفكرية، سعادته ليست في امتلاك الأشياء، بل في تطوير ذاته، في إيصال أفكاره إلى بر الأمان، تعاسته الوحيدة هي ما يعيق هذا المسار، أما ما عداه فهو تفاهات لا تستحق الانتباه، لذلك، كان العباقرة عبر التاريخ يضعون قيمة عليا لأوقات فراغهم، لأنها المساحة التي يولد فيها الإبداع، قيمة الإنسان عندهم تقاس بما يمنحه لنفسه من حرية التفكير، لا بما يجمعه من مكاسب خارجية.

ويبقى السؤال: من أين تنبع السعادة؟ للعامي، من الخارج الهش، للمتوسط، من مزيج بين الداخل والخارج،

لكـن للنابغـة، مـن نبـع لا ينضـب في أعماقـه، يـروي روحـه دون حاجة إلى أحد.

البركة في الوقت

الوقت، ذلك النهر الجاري الذي لا يتوقف، هو نفسه لجميع البشر على هذه الأرض، سواء كنت في شمالها البارد أو جنوبها الحار، في شرقها المشرق أو غربها المغرب، فإن الثواني تتساوى، والدقائق تتماثل، والساعات تمضي بنفس الإيقاع، يطول النهار أحيانًا ويقصر الليل، أو يقصر النهار ويمتد الليل، لكن الزمن يبقى ثابتًا في جوهره، لا يفرق بين غني وفقير، صغير وكبير، ومع ذلك، حين تنظر إلى الناس، تجد تفاوتًا عجيبًا في إحساسهم بهذا الزمن، وفيما يستطيعون إنجازه خلاله، كأن الوقت، رغم تساويه، يتمدد للبعض ويضيق على الآخرين.

هناك فئة من البشر تعيش الوقت بهدوء وسكينة، تجدهم يؤدون أعمالهم اليومية دون تكلف، يقضون ثماني ساعات في مقرات عملهم، ثم يعودون إلى بيوتهم دون أن يشعروا بثقل المهام، يحرصون على صلواتهم في المساجد، لا تفوتهم جمعة، ويستقبلون رمضان بكامل سننه من صيام وقيام وذكر، يؤدون واجبات العزاء في أوقاتها، يزورون المرضى، ويصلون أرحامهم بمحبة، لا يقطعون حبال

الوصل مع أصدقائهم، سواء القريبين أو البعيدين، ويجدون وقتًا لممارسة هواياتهم الرياضية أو الفنية، يداعبون أبناءهم، يؤدون حقوق زوجاتهم، ويعيشون حياتهم كأن الوقت ملك أيديهم، يتمدد ليحتضن كل ما يريدون .

في المقابل، هناك فئة أخرى لا تكف عن الشكوى من ضيق الوقت، رغم أن التزاماتهم قد لا تبلغ نصف ما تحمله الفئة الأولى، إلا أنهم يلهثون دائمًا وراء الساعة، لا ينجزون إلا جزءًا يسيرًا مما يطمحون إليه، ويبقون غير راضين عن نتائجهم، تجدهم يتأخرون عن مواعيدهم، يهملون صلواتهم أحيانًا، ويجدون صعوبة في موازنة حياتهم، حتى لو أُتيح لهم يوم كامل دون التزامات، ينتهي بهم الأمر وهم يشعرون أن الوقت انزلق من بين أيديهم كالماء.

فما الفرق بين هاتين الفئتين؟ السؤال يفرض نفسه، والجواب يكمن في كلمة واحدة: البركة، نعم، البركة في الوقت هي التي تصنع هذا التباين العجيب، الفئة الأولى مباركة في أوقاتها، لأنها تعيشها بوعي وإيمان وتوازن، أعمالهم، مهما كثرت، تتسع لها الساعات، لأن الله يضع فيها من بركته ما يجعلها كافية ووافية، إنهم لا يهرولون وراء

الـزمن، بـل يسـيرون معـه كأصـدقاء، يسـتثمرونه فيمـا يرضـي الله وينفـع أنفسـهم والآخـرين، أمـا الفئـة الثانيـة، فبركـة أوقاتهـا ممحوقـة، ربمـا لأنهـا تفتقـر إلـى النيـة الصـادقة، أو تُثقلهـا الفوضـى والتشـتت، أو ربمـا لأنهـا تهمـل مـا يجلـب البركـة مـن طاعة وصلة وذكر.

الوقـت، في النهايـة، لـيس مجـرد أرقـام على سـاعة، بـل هـو حيـاة نعيشـها، مـن يعـرف كيـف يمـلأه بـالمعنى، يجـد فيـه متسـعًا لكـل شـيء، ومـن يتركـه يمـر دون وعـي، يظـل يلهـث وراءه دون جـدوى، البركـة ليسـت سـحرًا يُمـنح، بـل هـي ثمـرة عمـل ونيـة وتوكـل، وفي هـذا الضـجيج الـداخلي الـذي يمـلأ أرواحنـا، قـد يكـون السـؤال الأعمـق هـو: كيـف نجعـل مـن وقتنـا سـفينة تحملنـا إلى الرضـا، بـدلاً مـن أن تكـون عبئًـا يثقـل كاهلنـا؟ ربمـا الجـواب يكمـن في لحظـة تأمـل هادئـة، ننظـر فيهـا إلى أنفسـنا، ونسـأل: هـل نحـن مـن نملـك الوقـت، أم أنـه هـو من يملكنا؟

الفهرس

تـــوطـــــــئة 4

الإهـــــــــــداء 5

المحور الأول: التأملات الفلسفية والإنسانية.....6

تأملات في الوردة والإنسان 7

بين معدن الذهب وصدأ الحديد 9

الإنسان متعدد الأرواح في عزلة البشر 12

من التجارب الحياتية إلى حكمة العزلة 15

المعادلة الصعبة بين نضج العقل وانحدار الجسم..... 19

غربة الوعي: 23

–بين قوة الرؤية وعذاب التفرد–..... 23

المحور الثاني: القيم الاجتماعية والدينية 26

تأملات في حديث "استوصوا بالنساء خيرًا"..... 27

فخر الثبات في زمن التغيير 30

الرفقة بين رافعي الهمم ومثبطي العزائم..... 33

أبواب الخير المغلقة بفعل الشر 36

دوام النعمة بالشكر: 39

تأملات من عين فكرون إلى بئر العاتر 39

المحور الثالث: التحولات الاجتماعية والعملية..... 42

من القلة إلى الكثرة..... 43

–تحولات مكانة المرأة في سوق العمل– 43

الوظيفة العمومية بين جمود القوانين وإهدار الكفاءات..... 46

من رواد الإنترنت إلى صدمة تيك توك رحلة عبر العالم الرقمي 50

الإنسان والآلة 54

المحور الرابع: الفكر والإبداع..... 57

القراءة مرآة الهوى أم نافذة التفكير؟ 58

من قصة ثانوية إلى رواية أولى 61

–رحلة الإبداع والتحدي– 61

الإبداع صراع لا سكون 65

–نداء للسائرين بين ظلال الحروف–..... 65

حياة الفكرة من القلب إلى الورق..... 68

المبدع والبيئة.....71

المحور الخامس: الصراعات النفسية والاجتماعية..... 74

الحنين إلى الأماكن والذكريات 75

المخضرم بين الزمان والمكان.....78

لا تدخل حربًا لا تعنيك.....81

الحسد البشري وفرص الارتقاء الضائعة 84

زمن اللغط والفساد.....87

– نجاة النفس بين العزلة والرفقة الصالحة–.....87

المحور السادس: السلطة والمجتمع..... 90

جوليفر بين الأقزام والعمالقة 91

عندما يغيب القانون وتسود الفوضى.....94

حكم الغابة – الجرذ، الأسد، والنسر 98

في سباق السلطة 98

المحور السابع: الرؤية النقدية للواقع..... 102

ما بين الأبيض والأسود، رؤية رمادية للأحداث 103

آراء الأغلبية لا علاقة لها بالحقيقة 107

–بين الفكر الفردي والجماعي– 107

لا شيء تغير 111

المحور الثامن: التأمل في القيم والسلوك البشري 114

" **لمين يامال**" والوفاء لمن أكرم 115

الصمتٌ وسط اللغط 118

لا تفكر كثيراً، هكذا هم الناس 121

الأنثى وميزان القيمة في عجالة الحياة.....124

لا تُهلك نفسك في عجالة العطاء.....127

فوضى الآراء ونجاة الصامت.....130

المحور التاسع: التحديات الاجتماعية والذاتية 133

السفينة التائهة في أعماق المجهول.....134

العيش في غابة البقاء 137

ذكريات الصبر وفوضى اليوم 140

الأدب، صوت القلب وسط عجالة الحياة.....143

المحور العاشر: التجربة الشخصية واليومية..... 146

كوب الشاي خاصتي.....147

مركز الجاذبية : 150

رحلة السعادة من الخارج إلى الداخل 150

البركة في الوقت 154

الفهرس 157

ضجيج داخلي

نبذة عن الكاتب

العايش زهواني من مواليد 04/04/1976 ببئر العاتر ولاية تبسة الجزائر. درس جميع اطواره الاولى بمسقط راسه، ثم انتقل للعيش في مركز الولاية تبسة، تحصل على شهادة تقني سامي في تسيير المخزون والتموين(1997/2000)، ومارس العمل المسرحي الهاوي وكتابة السيناريوات المسرحية خلال تلك الفترة، ثم عمل كمراسل صحفي لوكالة القبس بقسنطينة (2000/2004)، وعمل في ميدان التجارة لفترة، وايضا في اطار الادماج المهني لفترة اخرى، وتحصل على شهادة الدراسات الجامعية التطبيقية من جامعة التكوين المتواصل (2013/2016)، ثم حصل على وظيفة بجامعة الشهيد العربي التبسي، ومن مؤلفاته واصداراته بيت العنكبوت، قشة غريق، مقالات ضجيج داخلي.

بالنظر إلى تجربتي الطويلة مع الإنترنت، أرى أن الفارق بين "فيسبوك" و"تيك توك" يكمن في الهدف والجمهور. "فيسبوك"، رغم عيوبه، كان يحمل طابعًا اجتماعيًا وتفاعليًا يسمح بتبادل الأفكار والخبرات، بينما "تيك توك" يبدو كمنصة استهلاكية تهدف إلى الترفيه السريع والانغماس في التفاهة. قد يكون هذا انعكاسًا لتغير اهتمامات الأجيال، حيث يفضل الشباب اليوم الإشباع الفوري على التأمل أو البناء الفكري. لكن هذا لا يبرر ما رأيته: محتوى يعتمد على الاستعراض السطحي، وينتشر إلى أي قيمة مضافة، بل يساهم في نشر الجهل والانحطاط.

في المقابل، قد يدافع البعض عن "تيك توك" بحجة أنها تمنح الفرصة للجميع للتعبير عن أنفسهم. لكن التعبير وحده لا يكفي إذا كان يفتقر إلى المعنى أو الهدف. منصة تجعل القمة لمن يدفع أو يثير الجدل، بغض النظر عن جودة ما يقدمه، لا يمكن أن تكون سوى أداة لتكريس التفاهة. هذا الضجيج الداخلي الذي شعرت به عند استكشافها ليس مجرد رد فعل شخصية، بل تأمل في ما وصل إليه عالم الإنترنت الذي كنت من روّاده، كنت أتوقع تطورًا يرفع المستوى، لا منصة تهبط به إلى الحضيض.

في النهاية، "تيك توك"، كما رأيتها، ليست مجرد منصة، بل رمز لتحول رقمي يعكس أسوأ ما فينا السطحية، الغش، والسعي وراء الشهرة دون قيمة، مقابل كل خطوة تقدمناها في التكنولوجيا، يبدو أننا نتراجع خطوتين في الوعي والأخلاق. هذه الصدمة دعوة للتفكير: إلى أين نحن ذاهبون في هذا البحر الرقمي؟

ISBN: 978-9969-515-34-3